سلسلة أوراق من التاريخ

٤

المكتشفون في التاريخ

شاكر مصطفى



ربيع الدار

لهيئة مدارس أبناء وبنات الشهداء في الجمهورية العربية السورية


دمشق أوتوستراد المزة ص.ب: ١٦٠٣٥ ـ برقياً طلاسدار

هاتف: ٦٦١٨٩٦١ـ٦٦١٨٠١٣ تلفاكس: ٦٦١٨٨٢٠ تلكس: ٤١٢٠٥٠

المكتشفون في التاريخ

الطبعة الأولى ١٩٩٦

سلسلة أوراق من التاريخ

٤

المكتشفون في التاريخ

شاكر مصطفى

كلمة أولى

- هل عيناك تريان ما لاترى؟
- انها البصيرة لا البصر!
- إنك تروم مالايرومه أحد.
- من ركبَ العواصف لم يأبه الرياح!
- ولكنك لاترى إلا المجهول. ألك ثأر عنده؟
- أنا لاأمشي إليه. إنه يعيش في داخلي!
- هل أنت دائرة تبحث عن المركز؟
- بل أنا المحيط الذي يبحث عن لانهاية

شاكر



أولئك الذين اكتشفوا

أرأيت لو كنت تحفر أرضاً فوجدت كنزاً فكم ذا يكون فرحك؟ ولو كنت تبحث في مخبرك فانكشفت لك حقيقة علمية؟ أو كنت بحاراً فوقعت عل جزيرة لم تسجلها الخرائط؟ أو كنت تفكر فتفجرت بين صدغيك فكرة جديدة؟ فأي سعادة ترقص لك؟ وأي دهشة من المسرة تشع من هدبيك؟ وكم ذا يلذلك أن تتبادل خبرات حياتك مع آخر يبادلك خبراته وتصطفيك لها وتصطفيه؟

ميزة هذه الآلة المكورة في أعلى العمود الفقري من كل منا نحن بني البشر إنها مجرد مخزن لتراكم الاكتشافات والخبرات، إنها كالنسيج الاسفنجي، تمتص الجديد. تستقر فيها هذه المكتشفات ويجتمع بعضها إلى بعض أو فوق بعض، لتكون حضارة للانسان وتقدمه وميزة الانسان. الاكتشاف عمل إنساني الحيوان لايجاوز حدود الغريزة .

هذا الكائن الذي نسميه الانسان هو الكائن الوحيد الذي يظل يكتشف ويكتشف من الكون ما لاينتهي من أسرار الأرض والطبيعة. واحسب لو نظرت إلى نفسك ﴿ وفي أنفسكم أفلا تنظرون ﴾ لوجدت أنك مهرجان اكتشافات لاتنتهي وأنت لاتدري. قد تكون لحظات اللذة فيها وجنونُ الفرح قد تحولت تدريجياً إلى شيء عادي أو اندرجت في عالم النسيان فلم يبق منها حتى بريق الذكر. أما الاكتشاف نفسه فآخذ طريقه إليك وإلى أمثالك من بني البشر وانضاف إلى ما تعرف ويعرفون ... تنحسر أفراح اللحظة الأولى وتنسى ولكن الكشف مع الكشف الذي سبق والذي لحق يكوّن تراث الانسانية. يكوّن هذا الانسان الذي هو أنت وأنا.

والانسان نهم دائم إلى اكتشاف الجديد إلى معرفة ما وراء الأسرار. ما وراء المبهم. الطلسم يثيره المجهول يدفعه إلى تجاوزه الماوراء. هذا الكتاب المغلق

ينحت الانسان بأظافره فيه كل يوم كما ينحت في الصخر ليفتح نافذة فيه بالخيال. بالمغامرة. بالجهد الذي يسحق النفس. بألوف التجارب المخفقة. يعمل ليتجاوز جداره الصلد.. وأكاد أزعم أن الانسان لايعتبر نفسه إنساناً إلا بهذا النطاح للسر الأبدي المنبث في الطبيعة بكل مكان حوله. أهو حب المعرفة أم الخوف على الذات هو الذي يدفعه؟ لست تدري ولعله الاثنان معاً. مزيج من الرغبة والرهبة من الشجاعة والخوف يدفع الانسان لارتياد المجهول مهما يكن الثمن.

ولايهم أن ننجح في الاكتشاف، ولكن الهام أن نحاول. أن نحاول دوماً للمزيد من التجربة. الذين ماتوا وهم يحاولون تجاوز المجهول أكثر بكثير جداً من الذين نجحوا في تجاوزه ومن يدري ولكنها المصادفة أو الحظ أو القدر هي التي فتحت للمكتشفين الطريق .ولكن الاكتشاف يبقى دوماً نهاية الرحلة الغامضة والنهاية السعيدة أيضاً ولو لم يجهد الانسان نفسه فيها. وما هو تقدم الانسان وحضارته؟ إنها تراكم مكتشفات متصلة لاتنتهي!

وأعود بالفكر إلى الانسان في عهده الأول وأتساءل كم ذا قاسى وتعب وقضى من الوقت ليكتشف هذه التوافه الصغيرة الكبيرة في حياته؟

عود الكبريت الذي تشعله ثم ترميه كان جذع شجرة. فصار عوداً هزيلاً لايجاوز عقدة اصبع. وكان يحك بعضه إلى بعض ساعات فصار يشتعل في ثانية، هذا الاكتشاف قضى الانسان فيه محاولة وتحسيناً واختصاراً قضى ما يزيد على مائتي ألف سنة. حتى استوى في يديك عود كبريت، يشعل النار؟ وتستطيع عليه طهو الطعام متى أردت والاستنارة حين يحل الظلام؟

البيت هذا المسكن الذي نبني ونتأنق فيه وفي تزيينه، أياً كان شكله الحالي فما هو إلا إبتكار جديد للكهف القديم الذي كان يحميك من الجهات الأربع وللحجارة تغلقها عليك خوف الطوارئ.

ضاقت أعداد الكهوف عن الناس فخرجوا يبنونها وقضوا في عملية الخروج منها ثلاث مائة إلى خمس مائة ألف سنة.

العجلة هذه الوسيلة الدائرية التي تنزلق عليها اليوم في المركبة أو السيارة ماذا كان أصلها؟ كشف الانسان في تجاربه المريرة لنقل الأثقال أن جذع الشجرة المتدحرج على الأرض يمكن أن ينقل فوقه سبعاً طباقاً. منذ هذا الاكتشاف لقيمة هذه الحركة الدائرية ظل الانسان يطور في صناعة هذه الوسيلة. ولكنه قضى على الأقل مائتي ألف سنة في التجربة والاخفاق حتى اكتشف العجلة .

اللغة؟ ماذا كانت؟ أصواتاً قضت البشرية عشرات ألوف السنين في تحسينها وتنظيمها. فلكل أمة مصطلحها الخاص وطرائقها في التعبير ونسمي ذلك لغة! فكم قضى الانسان حتى أتم الاكتشاف ونظمه وأقام له القواعد والأصول؟ ثم كم قضى وهو يحاول ابتكار الوسيلة لنقل هذا الصوت الاصطلاحي إلى الآخر البعيد عنا في الزمان والمكان؟ كم قضى ليكتشف وينظم الرموز المسطورة التي تقوم عليها اليوم حركة الانسانية كلها: الكتابة فنحن نعلمها اليوم سائغة جاهزة للأطفال؟

والنسيج؟ هذا النسيج الذي تشترى الأمتار منه والألوان بفلوس معدودة. كم أتى على الانسان من الدهور حتى استطاع أن يغزل الخيط ثم أن يعرف ضم بعضه إلى بعض؟ وأن يكتشف بذلك ما يقيه صبارة البرد أو يظله من حمارة القيظ؟

هؤلاء الذين اكتشفوا للانسانية حاجاتها الأولى. وماتوا دون أثر هم الرواد الأوائل الذين صنعوا مجد الانسان وتفوقه. ودع عنك من بعد المكتشف المجهول أو المكتشفين للرق وللزجاج وللبوصلة تهدى من أعالي البحار ولخصائص البارود أو صناعة الحرير من إفراز الدود.

ولن نتحدث عن هؤلاء المكتشفين الأوائل الذين غاصوا في عتمة الأيام رغم اكتشافاتهم الجبارة التي قضت الانسانية الدهور بالمئات في فتح مغاليقها. إنهم إشارات استفهام لن يكشفها الماضي أبداً. درست الرسوم. ولن نتحدث عن المكتشفين من باقي البشر فهم بالملايين في كل مكان. ولكنها نزهة وطرائف

من هنا وهناك عن بعض المتواضعين الضائعين. عن نذر ممن عانوا وذبحوا الوريد في الاكتشاف بمختلف أشكاله: هذه القلة الرائدة إنما تعيش الانسانية على آلائها. وعلى آلامها أيضاً ولاتدري.

المؤسف الوحيد أنهم جميعاً ممن ركزوا اكتشافاتهم على الأمور المادية من الحياة. أعطونا السعادة، والهناء المادي. أما السعادة التي تشع كالشمس من الذات وتتزين لها الدنيا، السعادة الحقيقية التي تنبع من القلب: فما تزال منابعها، كمنابع النيل في القديم، مجرد تخيلات ترتبط بالقمر والأفلاك والحظوظ ماتزال أملاً رواغاً كالزئبق يأتي على غير انتظار، ويذهب إلى غير موعد وهيهات تقبضه بين مجيء وذهاب. أم أنك ترى غير ذلك؟

اكتشاف الناس

قبل ست مائة أو سبع مائة سنة هزت رؤى الشرق الأسطورية كل عشاق المغامرة في الغرب من أوروبيين أو مغاربة. كان كل العالم المعروف يمتد طولانياً فقط ما بين الصين والأندلس بعرض يبلغ في أحسن أحواله ربع هذا الطول. ما وراء ذلك مجاهل للأساطير فيها غنى. ولعجائب الخرافات مرتع يتصور الناس في أطراف هذا المعمور شجراً ينبت رؤوساً بشرية أو أغناماً تزرع زرعاً كالقمح، ذلك الدبيب نحو الشرق كان نوعاً من الفضول،، من المصالح من حمى المعرفة، من الرغبة في رؤيا العجائب. عشرات المئات تحركوا فبعضهم عاد وبعض لم يعد والذين عادوا قلة فيهم من أخذ مشاهداته يوم أطبق عينيه. وفيهم من كتب عن هذه المغامرة العجيبة وعما اكتشف من الغرائب.

من هذه القلة مسلم مغربي قضى معظم حياته على الركائب والسفن من أقصى المغرب والسودان إلى أقصى الصين والهند وأندونسيا كأنما سوط عذاب سري كان ينغل في دمه ويدفعه كلما استقر في بلد إلى أن يترحل عنه. ولو تزوج وولد وعرف المورد المريخ.

لقبه الذي عرف به مضحك على نحو ما: ابن بطُّوطة ـ أما اسمه فهو أبو عبد الله محمد بن ابراهيم اللواتي الطنجي من لواتة إحدى قبائل البربر كان في الثانية والعشرين بعد من العمر حين بدأ أطول رحلة لإنسان في العصور الأولى امتدت ٢٥٠ ألف كم، أي ما يكفي لتطويق الأرض ست مرات، ودامت تسعاً وعشرين سنة أي عشرة آلاف و٥٠٠ يوم ونيف أكلت شبابه كله. وتزوج خلالها ٢٣. مرة وأنجب سبعين ولداً وبنتاً. وكان كل ذلك. بالمجان لم يدفع في رحلته هذه فلساً! وكان في بعض الأحيان يمشي في كوكبة من الخدم والأتباع والدواب وفي بعضها... يؤسر ويربط في بعض الحظائر للقمل والقتل ! ولكنه كان في كل الأحوال هو هو نفسه الذي يتفتح له مع كل فجر أفق جديد يجري وراءه دون نهاية حتى أضحى ـ فيما نعلم ـ آخر جغرافي عالمي نعرفه من

الناحية العملية في حضارة الإسلام .

صحيح أن الذي ساعد ابن بطوطة على كل ذلك هو شعور العالم الاسلامي على طوله وعرضه بأنه وحدة واحدة. ولكن شيئاً كالسياط كان يسوق الرجل من مكان إلى آخر. حُرم الاستقرار إلا حين تقدم به العمر وضاع الشباب. وحين جلس في أخريات حياته بأمر السلطان أبي عنان المريني يملي مذكراته على الكاتب محمد بن جُزَى لإخراجها للناس. كانت آلاف الذكريات ترهقه حتى تمزقت حكايا وطرائف. وانقطع الخيط الذي يلمها في الزمن فهو نفسه تائه في الزمن.

يعرف أنه خرج للحج سنة ٧٢٥ / ١٣٢٥ ولزيارة قبر الرسول الأعظم من بلدة طنجة مر أولاً بالمغرب كله حتى وصل الاسكندرية ودمياط. ثم ركب النيل إلى أسوان. ولكن حرب المماليك مع قبائل البجة كان قد أوقف العبور في البحر الأحمر إلى ينبع فعاد إلى القاهرة ومنها إلى قافلة الحج من دمشق بعد أن زار انطاكية وحلب واللاذقية والقدس. ولست تدري أي توق محموم لاكتشاف الناس ركبه بعد ذلك أو خلال ذلك رأى الناس أجناساً وأزياء ولغات تدندن وعادات تلتقي وتفترق فشاقه ذلك كله وأقبل يتتبعه كالمشدوه به، البشر كان يهمه لا الأرض الجغرافية ولا الآثار ولا المسافات. غرائب هذا البشر كانت تقوده تارة في النجف، وأخرى في شيراز، وثالثة في اليمن، ورابعة في الأناضول ثم في جزيرة القرم حيث سمع لأول مرة قرع النواقيس، ولم يفته الحج خلال ذلك ثلاث مرات .

ولحق ابن بطوطة بهواه الذي كان يسوقه إلى سهوب روسيا ثم إلى القسطنطينية، في ركب إحدى الأميرات ، ثم ظهر في أرض البلقان. ثم عبر نهر الفولغا إلى خيوه وبخاري وبلاد الأفغان والهند حيث حظي لدى السلطان محمد بن طفلق بمكانة بارزة وبقي قاضياً خمس سنوات . ثم عادت حمى السفر والتوق إلى اكتشاف البشر تلح عليه فرافق سفارة للسلطان الهندي ذهبت إلى الصين في البر فلما أخفقت في اجتياز الحاجز الجبلي الهائل: سلسلة هملايا عاد يبحر

عن طريق كاليكوت وجزر المالديف (والتي يسميها ذيبة المهل) فأمضى فيها عامين ممتعين يعمل في القضاء وتزوج أربع زوجات وخلف. ثم عاودته الحمى إياها فترك كل شيء إلى سيلان ثم البنغال ثم الملايو إلى أندونيسيا ثم اتجه منها إلى الصين.

كان البشر كلما تنوعوا جنساً وعادات وأزياء وطعاماً وحرفاً ومراسم بلاط كلما زاد توقه لمعرفة المزيد عنهم . لم يكن يريد أن يكتب. ولعله كتب القليل. ولكن كان يريد أن يعرف أن يكتشف أن يرى عجائب خلق الله. وكان على قسط من السذاجة بحيث كان يصدق أحياناً كل ما يرى وما يسمع وحين عاد حج للمرة الرابعة. ولكن شفع حجه بزيارة للشام كله مرة أخرى وللعراق ولايران قبل أن يأخذ طريق العودة إلى المغرب.

هل كانت هذه الجولة رخية سليمة من المتاعب؟ الواقع أنه نجا من عدد من المصاعب فيها. قطاع الطريق نهبوه مرتين. أمواج البحر هددته بالغرق أكثر من مرة. وهاجمه المرض وباء الطاعون الأعظم الذي شمل الدنيا سنة ٧٤٩ / ١٣٤٨ فاجأه بالشام ولم ينله. ثم عاد إلى المغرب وفي جبينه آلاف القصص والذكريات .

هل انتهى ابن بطوطة من الرحلة. أبداً. عبر البحر يستكمل رحلاته بزيارة الأندلس. فأقام فترة في غرناطة. ثم كلفه سلطان المغرب أن يرافق حملة تكتشف أبعاد افريقية السوداء. فزار تمبكتو ومالي وعاد برفقة قافلة من تجار الرقيق اخترقت به بلاد الملثمين في صحراء الأحجار وجبال الأطلس الثلجية في عز الشتاء وأخيراً وصل فاس. والشيب قد وخط فوديه والجبين قد تغضن والنفس مرهقة مرهقة بما لاتدري من الشجون

وألقت عصاها واستقرت به النوى　　　كما قر عيناً بالإياب المسافر

وطلب إليه السلطان إملاء ذكرياته ووضع تحت يديه كاتباً من كتابه كتب له: تحفة النظار من غرائب الأمصار وعجائب الأسفار الكتاب الذي ظل يخب ويضع. ويظهر تارة بين المخطوطات ويضيع أخرى حتى طبع في القرن

الماضي فصار ابن بطوطة على لسان أهل جزر المالديف كما على لسان الروس واهتم به الهنود والصين اهتمام الزنج والعرب أضحى كتابه وثائق عصر، وتاريخاً حياً مشهوداً للعالم كله في عصره... ولو أنه كان من خلال عيني ابن بطوطة ومنظاره الذاتي .

بقي أن نذكر أن متابعة ابن بطوطة في رحلاته متعة من المتع. وما عليك إلا أن تفتح أي صفحة من كتابه وتتابع القراءة لينقلك إلى عالمه الذي رآه بكل طرائفه وغرائبه. وكان يهوى هذه الطرائف والغرائب ولعله ما بهر السلطان في عصره وبهر الناس إلا بهذا النوع من القصص الغريب: عن الجزيرة التي رآها في البحر بحار الهند فإذا هي رخ عظيم. عن جماعة القرود التي تتصرف بالحكم كبني الانسان سلطاناً وعقاباً. وعن النساء ذوات الثدي الواحد في جزر المالديف. وعن المرآة التي أتوه بها ليقضي في أمرها وقالوا إنها كفتار. واتهموها بأنها أكلت قلب بعض الصبيان. وكانت وسيلة التحقق من ذلك أن ربطوها من يديها ورجليها وطرحوها في النهر فلم تغرق فعلم أنها كفتار (أي ضبع) فأحرقت بالنار. وأخذوا رمادها يتبخرون به للخلاص من سحرها، هذا إلى الشجرة الآثرية التي مسخ أهلها حجارة وإلى الفيلة التي انتقمت لذبح واحد منها وأكله. والشجرة التي تسقط منها ورقة واحدة كل سنة مكتوب عليها لاإله إلا الله. ينتظرها الناس حتى إذا سقطت تقاسموها مع السلطان ونصفها يكفي لعلاج الناس كافة، وعن الرجل الهندي الذي تسلق حبلاً انتصب من تلقاء نفسه أمام السلطان، ثم صعدت وراءه خف مازالت تضربه على رأسه حتى يصل الرجل إلى الأرض. والعفريت الذي يأتي من البحر كل شهر في سفينة مضاءة ويقدم له أهل الجزر فتاة عذراء في المعبد ثم يجدونها قتيلة في الصباح. وكيف أظهر بعض المغاربة كذب هذه الأسطورة فكان ذلك سبباً في إسلام أهل المالديف.

تقرأ في ذلك الكثير في هذه الرحلة التي كشف فيها ابن بطوطة الغطاء عن عصر كامل وكشف عقلية الناس فيه أيضاً. إنها صندوق العجائب الذي سبق السينما . فهل ترى الرجل قصد قصداً إلى ذلك؟

كوك الحراث في المحيط

عاشقو الأسفار وبخاصة في أوروبا يعرفون هذا الاسم جيداً. ويثقون به. إنه اسم لوكالة سفريات عالمية قديمة عاشت عصر العربات والسفن الصغيرة ثم عصر القطارات والبخار والسيارات ثم عصر الطائرات ولعلها ما تزال تنتظر عصر الأقمار فيما يبدو. حتى أواسط هذا القرن كان اسمها ألمع الأسماء في دنيا السفر فمن هو كوك هذا؟ هل أتاك حديثه؟

لاتحسب أن اسم مركب من بدايات أسماء بعض الشركات ولا اسم لبعض المستثمرين الناجحين ولا اسم تزييني ولكنه اسم لرجل حقيقي ظل يتراقص على صفحة المحيطات نصف عمره الذي امتد واحداً وخمسين سنة فقط. كان ذلك قبل قرنين ونصف القرن.

الرجل حراث وابن حراث. ولكنه استبدل بالمحراث دفة السفن وراح يحرث في المياه والأمواج بدل التراب، راتسع أمامه مدى الحراثة فبعد أن كان عليه أن يحرث أشباراً من الأرض صار حراثاً لثلثي كرة الأرض، والقضية أنه كان مسكوناً بالأشرعة والاكتشاف مجنوناً بالبحث عن أرض لم يعرفها أحد من آفاق المحيط الأعظم المحيط الهادي! .

وهو انكليزي الأصل يقولون عنه إن ولد في أسرة من الفلاحين الصغار. وكان له تسعة إخوة ولم يعرف القراءة والكتابة حتى ما بعد العشرين من العمر، لكنهم يذكرون أيضاً أنه كان شاباً جدياً كل الجد. منظماً حتى أبعد الحدود ومع أنه اشتغل في شبابه الأول في محل بقالة بالجملة إلا أنه كان عاشقاً للبحر منذ صغره. وذات يوم وهو فتى صغير أراد بعضهم إحراق مركب قديم له على الشاطىء فلما ألقى النار فيه فوجىء بالصبي جيمس كوك يخرج هارباً منه، ولكن أنّى له بالملاحة وكانت في تلك الأيام من الأعمال النبيلة وهو ابن لريفي فقير فلاح؟ على أن ما كان مخبأ له من لوح القدر كان مختلفاً جداً فقد

وصل إلى أن كان ملك انكلترا يفخر باستقباله كأعظم الملاحين. وإن كان يعبد كالآلهة في بعض المواقع. وانتهى نهاية فاجعة، مات ميتة كلب تزاحمت عليه الحراب... بأيدي عباده أنفسهم وفيما بين مبدأ عمله على الماء في سفينة لنقل الفحم وبين موته قتيلاً في جزر هاواي لم يعرف الموج بحاراً عنيداً قاسياً مثله ولا مكتشفاً في مثل إصراره وتصميمه. ولاتدين له الجغرافيا برسم أصدق وأدق الخرائط عن المحيط الهادي ولكن تدين أيضاً بكشف معظم مافات المكتشفين الآخرين كشفه فوق ذلك المحيط من أرض الله وعلى الدقة.

على ظهر سفينة الفحم علم كوك نفسه الرياضيات والملاحة وتحديد مواقع السفن في البحار. وكان في الخامسة والعشرين حين عين مساعداً للقبطان. بدأ التدرج على السلم. ولكي يرتقي في البحرية الملكية الرسمية فضل التطوع بحاراً عادياً فيها ولو أن أمله في الوصول إلى المراتب العليا مقطوع. فهي محجوزة لأبناء الأسر والنبلاء. واشترك في حرب السنوات السبع بين انكلترا وفرنسا في كندا. واكتشف أبعاد نهر سان لوران حتى استطاعت مئات السفن الانكليزية أن تحاصر قلعة كيبك.

وصار بذلك ضابطاً في البحرية الملكية، لكن أمجاده لم تبدأ بعد، إنها سوف تنهال عليه في السنوات العشر الأخيرة من حياته. وبعد أن يبلغ الأربعين.

في سنة ١٧٦٧ ، بعد أن عاد الوئام بين فرنسا وانكلترا اتفق البلدان مع دول أخرى على إرسال بعثة علمية إلى جزر تاهيتي في المحيط الهادي، كوكب الزهرة سيمر بين الشمس والأرض. وأفضل مكان لرؤيته كما قرر العلماء هو هناك، في تلك الجزر. وكلف كوك بقيادة البعثة! .

وسافر كوك ببعثة العلماء والفلكيين من انكلترا إلى سواحل البرازيل إلى أقصى جنوب أمريكا اللاتينية حيث رأس هورون وقطع المحيط الهادي. وفي تاهيتي بدأت المراقبات الفلكية، لكنها فشلت لأن الشمس في فترة عبور الزهرة تبهر البصر للدرجة التي تستحيل معها كل تجربة علمية لكن كوك

استغل الفرصة ليحقق كشفاً علمياً آخر ليس أقل شأناً، كانت أقصى معارف الانسان على الأرض لاتتجاوز أندونسيا ويقولون إن ثم أرضاً في جنوبها وشرقها متصلة بأقصى القطب الجنوبي... يقولون... بلى! ولكن لم يحقق أحد وجود هذه الأرض بالفعل.

أبحر كوك إلى ما نسميه اليوم جزر نيوزيلانده. واكتشف المضيق القائم بين جزيرتيها الكبيرتين. وطاف حولهما وصورهما على الخرائط التي رسمها... أدخلها ضمن المعارف العالمية. وغادرهما غرباً يريد أن يتأكد من انعزالهما الكامل فوقع على أرض جديدة. إنها استراليا. وما كان يعرفها أحد في الخليج الذي وقف أمامه خليج النباتات لكثرة ما فيه من غرائب النبات والحيوان والبشر... رأى هناك حيواناً بارتفاع قامة الانسان له رأس غزال وذيل ضخم يقعي معه على رجليه الخلفيتين الطويلتين كالطيور ويقفز كالضفدع ، إنه الكونغر - كما يسميه أهل البلاد الأصليون ! لم يعرف أن له ٢٨ نوعاً آخر والسكان سود ولكنهم في غابة الهدوء ويمشون دوماً في خطوط مستقيمة. وطاف حول الساحل الشرقي لهذه الأرض وتأكد أنها قارة ضخمة منفصلة عن القطب الجنوبي وسماها أستراليا أي أرض الجنوب... طبعاً بعد أن قام بمراسم رفع العلم الإنكليزي عليها! وأمام إلحاح البحارة والعلماء المرافقين عاد بالسفينة إلى مرفأ بلايموث من إنكلترا وقد طاف الأرض .

في سنة ١٧٧٢ انطلق في مهمة بحرية أخرى دامت ثلاث سنوات كان هدفها دراسة المناطق المتجمدة الجنوبية. خرج في سفينتين. أبحر في المحيط الهادي نحو الجنوب ١٢٥ ألف كيلومتر ولم يجد شيئاً هذا العالم جليد وراء جليد... ولكنه اكتشف مع ذلك أن استراليا قارة مستقلة لا صلة لها بالجنوب الأقصى المتجمد! وأعادت الدنيا كلها رسم خرائطها على أساس ما رسم وقرر كوك ! صار في نظر الناس أعظم بحار عرفته البحار!.

خرج كوك بعد ذلك في مهمة ثالثة في ثلاث سفن مهمتها أن تتأكد من وجود ممر شمال آسيا وأمريكا. ذهبت سفينة من شمالي المحيط الأطلسي

باتجاه الغرب لتلتقي إن كان ثم وجود لهذا الممر في منتصف الطريق مع سفينتي كوك اللتين عليهما المرور من شمال البحر الهادىء. خسر كوك على الطريق السفينة المرافقة له ذهبت قتلاً وأكلاً في جزر تاهيتي. وانطلق كوك شمالاً شمالاً فلم يجد سوى الجليد لكنه في عودته اكتشف جديداً، بلى اكتشف جزر هاواي سماها جزر ساندويتش على اسم اللورد الذي مول البعثة.

في هذه الجزر عرف كوك الاستقبال الالهي زحف السكان في البحر حتى الأعناق لاستقباله. زعيمهم قدم له كل شيء أراد. كان في أساطيرهم أن إلهاً أبيض سوف يأتيهم على الماء. وحسبوه ذلك الإله. بعد أيام فقط، وفي هذه الجزر الهادئة عاقب كوك بعض بحارته بالجلد حتى سالت دماؤهم. حين رأى سكان هاواي الملونون هذه الدماء أدركوا أنهم ليسوا من ملائكة الله وكلهم بشر. وحين وجه بعض هؤلاء الملونين سهمه إلى واحد من البيض قتله كوك، فقام شيخ القبيلة وقتل كوك بكل بساطة. وأجهزت عليه الأسنة.

لم يدرك كوك أن الذي قتله هو ابن الشيخ الوحيد ولم يدرك هذا الشيخ أن قتيله هو أعظم مكتشفي البحار وأن هدير الموج كان في دم هذا الريفي المغامر... وقبر ملك ـ الموج في الأرض ـ ألا تحسبونه كان يفضل أن يقبر في نعش يهتز دوماً على الموج في عرض المحيط؟

شريك كولومبوس

كلنا مجمعون على أن كريستوف كولومب سنة ١٤٩٢ هو المكتشف لأمريكا ولو أنها سميت بغير اسمه نعلم ذلك لأطفالنا! فما رأيك لو أني جزمت بوجود شخص آخر مع كولومب يشاركه هذا الاكتشاف العظيم ولايذكره أحد وغرق في النسيان ليحمل كولومب وحده تاج الغار ؟ إذن فاستمع هذه القصة!

إنها ليست قصة المقررين من العرب. ولاحديث أهل النروج أو الدانمرك الذين يصرون على أنهم مكتشفوا أمريكا ولا الفايكنغ أيضاً. إنها قصة رجل رافق كولومب قائداً بحاراً منذ بدء المشروع حتى نهايته... لكن من ذا الذي يعرف اسم الونزور مارتن بنزون؟ أو دوره لقد شغلت قضيتة المحاكم البرتغالية عشرين سنة ولكنه مات قبل أن يعرف عنها بكثير ثم ماتت القضية من بعده.

مارتن بنزون بحار محنك ذو سمعة ونفوذ بين مغامري البحر وهو عالم جيد بالبحار والأرض درس عن هذه وتلك الكثير في المكتبة البابوية في روما لدى اينوست الثامن. وكان يستعد للقيام برحلة إلى الغرب في محيط الظلمات أو ما كان يعرف في ذلك الوقت قبل خمسمائة سنة ببحر الظلمات حين التقى في دير رابيدا قرب مدينة ولبة مع كريستوف كولومب وابنه الطفل ذي السنوات الخمس. كان الدير أبيض كله لكن رهبانه بالأرواب السوداء كانوا مغرمين بالليل محبون لعلم الفلكُ يكتشفون ما في السماء ويتتبعون أخبار المبحرين في الأرض إلى ماوراء رأس الرجاء الصالح بجنوب افريقية.

كان اللقاء سنة ١٤٨٥ بين الاثنين. كولومبوس مملوء يأساً لم يتبن أحد تمويل مشروعه أو حتى الاقتناع به وبنزون يعد سفينتين على حسابه للمشروع نفسه وسعى أحد الرهبان بين الاثنين للقيام المشترك به ولكن من ذا الذي يموله؟ ليس إلا ملك إسبانيا لكن هذا الملك كانت تقاسمه السلطة ملكتها

ايزابيل ملكة قشتالة زوجته، فهو لم يكن أكثر من ملك منطقة آرغوان.

على أي حال فإن الملك الإسباني رغم غناه لم يقتنع بهذه المغامرة ولادفع الحماس الديني زوجته لقبولها رغبةً في كسب مسيحيين جدد إلى دينها... وقد أحالا المشروع إلى لجنة علمية فرفضته اللجنة.

وكاد اليأس يقنع كولومبوس بالبحث عن مستقبل آخر لكن بنزون أقنعه أن لديه خرائط ومعلومات ورثها عن بحار آخر بأن هناك في أقصى الغرب وراء المحيط جزراً هامة وأن المحيط لاينتهي كما يتصور الأكثرون بشلال هائل سحيق بلا قاع فيه الجان والعفاريت والنيران الهائلة وأنواع التنين!

وحين عاد كولومبوس يطلب لقاء الملكة لم ترفضه لكنها ترددت قبل القبول وإنما قبلت لأنها لن تخسر الكثير ثلاث سفن فقط ! وسوف تضع عليها على أي حال بعض البحارة من الأسرى المحكومين بالموت وفيهم عدد من المسلمين وعاد كولومبوس بالخبر المفرح إلى بنزون الذي كان عليه أن يدير كل شيء بعلمه وبمهارته في الملاحة وبسمعته! وتهيأت ثلاث سفن بنتا ونينا وتقل كل منهما ٢٤ و٢٦ ملاحاً وسانتا ماريا التي يبحر عليها أربعون مجموع البعثة كان ٩٠ رجلاً مازال نعرف أسماءهم وقد جند معظمهم بنزون بسمعته الشهيرة في البحار فما كان أحد يثق بكولومبوس ليقوم بهذه المغامرة معه ! وإذا كان دافع كولومبوس هو الذهب فإن دافع بنزون كانت الريادة والاكتشاف. لقد وظف أموالاً كثيرة في هذه المغامرة مما عزز سمعته وتطوع بعض البحارة في جماعته.

وكان طبيعياً أن يختلف الاثنان وقد اختلفا بالفعل واضطرا للوقوف أمام جزر كناري الإسبانية حيث تدبر بنزون أمر إصلاح دفة السفينة بنتا وصيانة السفن الثلاث وتدبر المؤن اللازمة.

أما كولومبوس فلم يكن يعرف كل هذه التفاصيل.

واختلفا بعد ذلك، على معاملة البحارة. بنزون حين أحس بالتذمر من بعض بحارته بعد أسابيع من الإبحار رأى تعليقهم على سواري المراكب مشنوقين. أما كولومبوس فكان يقدر أنه يحتاج كل ملاح من أجل العودة

فلابد من أخذهم باللين والمرونة. أما البحارة فكانوا كلما ازدادوا سيراً ازدادوا قلقاً ورعباً وصاروا يجاهرون وبعد إلى أين؟ وتصوروا أنفسهم طعاماً سهلاً للتنانين والشلالات الهائلة الهاوية التي تنتظرهم فازدادوا حدة وشراسة وكان قد مضى عليهم في البحر منذ غادروا جزر كناري حوالي أربعين يوماً حين صاح المراقب في أعلى سفينة بنتا واسمه رودريغو.

ـ الأرض! الأرض!.

ويجب ألا يخدعنا هذا الاسم الإسباني عن حقيقة الرجل فقد كانوا يبدلون للمسلمين أسماءهم برغمهم. ويبدو أن الرجل كان مسلماً وكان الملك الإسباني قد وعد أول من يرى الأرض بدخل سنوي قدره عشرة آلاف دينار مراكشي ذهبي فحرمه منها كولومبوس وأخذها لنفسه وحين عادوا عاود روديفر الالتحاق بأبناء قومه المسلمين يقاتل في صفوفهم بجبال البشرات حتى مات!

لايهمنا افتراق الرجلين بعد ذلك في اكتشاف الجزر التي عثرا عليها في أطراف ما نسميه اليوم بالبحر الكاريبي ولاتسميتهم للسكان الأصليين بالهنود الحمر وهم يتصورون أنهم إنما وصلوا الهند ولااصطدام السفينة سانتا ماريا الكبرى بالصخور وتركها ولكن يهمنا سباق الرجلين في العودة بالنبأ العظيم إلى إسبانيا. شعر كولومبوس بالرعب حين سمع باتجاه بنزون إلى الشرق على السفينة نينا فلحق به على السفينة الأخرى بنتا.

سباق العودة اعترضته في منطقة جزر آسور البرتغالية عاصفة فصلت السفينتين وتابع كولومب سيره ولم يكن له بد من المرور بها ولم يكن يريد البوح لأحد بمكان سفره وعودته لما بين الإسبان والبرتغال من التنافس ولكنه على أي حال لم يجد السفينة نينا هناك وحين دفعت الريح السفينة بنتا إلى شواطىء البرتغال خادع كولومبوس الملك عن نفسه ومهمته. وسار حتى إذا وصل المرفأ الذي يرى منه دير رابيدوس الأبيض وجد بنزون قد سبقه بنصف يوم. وكتب إلى الملك بوصوله! في انتظار الجواب طاف بنزون قليلاً في

الشواطىء الإسبانية ولحق به كولومبوس وتصافيا.

لقد ظل كولومبوس رسمياً هو قائد الرحلة .

وحين بعث الملك الإسباني إلى بنزون بالقدوم إليه كانت الحمى قد أخذت منه مآخذها ولست تدري أهي الملاريا أم التيفوئيد ولكنه على أي حال توفي وشيكاً خلال أسبوع أو يزيد قليلاً وانطفأ اسمه. واستقبل الملك كريستوف كولومب على أنه مكتشف الهند من الغرب .

أبداً ما ذكر أحد اسم بنزون... إلا كولومبوس نفسه حين كان يضطر لذكر اسمه! روى كولومبوس قصة هذه المغامرة. تراها هل كانت مغايرة لو أن كولومبوس هو الذي مات ورواها زميله بنزون؟

كنز... ولكن ليس من الذهب والجوهر

كشف الكنوز قصة تقوم دوماً بين السحر والحقيقة. يحلم بها البسطاء لإيجاد التوازن بين ما يريدون من الرفاه وما يجدون من الشقاء ! لكنهم غالباً ما ينتظرون من الكنز السعادة المادية المفاجئة بعد الضيق. لذلك كانت الكنوز دوماً شراب الفقراء وخدر المعدمين. إنها حلم مجاني بالرفاه وما الذي يمنع من الحلم؟ على أن الكنز الذي أتحدث عنه كان حقيقة واقعة ولو أن الاشارة إليه وردت لدى هيرودوت المؤرخ اليوناني قبل ألفين وخمسة مائة سنة وكان كنزاً ولو لم يكن من الذهب والزمرد وقد اكتشفه صاحبه ولكن لم ينل منه سوى الموت مشنوقاً فيما كانت الدول الكبرى تتنازع حول اكتشافه.

تبدأ القصة في العشرينات من هذا القرن في مرفأ مرسيليا القديم. وفي حانة هذا المرفأ التق اثنان أحدهما طويل جداً في الرابعة والعشرين تشع عيناه بالذكاء اسمه كونراد كيليان والثاني مربوع من الجنوب الفرنسي اسمه لاكروا... والتق الاثنان عند الحلم بالكنوز فصارا صديقين ولما كان لاكروا ضابط صف قديم في الصحراء الكبرى الفرنسية يومذاك، ومغامراً من رأسه إلي أخمص قدميه فقد أسر إليه كونراد بسر: إنه يؤمن بوجود كنز في الصحراء ذكره هرودوت وهو مفعم بالذهب والزمرد. ويتمنى أن يذهب فيبحث عنه إنه في المنطقة الشرقية منها وكان لشعوب الغارامانت البدوية القديمة.

كان كونراد ارستقراطياً متخصصاً بالجيولوجيا. وقد تطوع في الحرب العالمية الأولى ثم سرح مع نهايتها. وهو يبحث عن شريك يعرف الصحراء ليشاركه تحقيق حلم الطفولة . وكان لاكروا يملك أرضاً زراعية واسعة في الجزائر ولكنه مولع بالثروة جد الولع. وفكر أن جيولوجياً شاباً مثل كونراد يصلح باحثاً جيداً عن الكنز. بعد عدة أسابيع كان الاثنان يتفقان في حانة بالجزائر على البحث عن كنز الغارامانت المفقود. على أن الصدفة ألقت بينهما

منذ اللحظة الأولى بذرة الاختلاف. إنها فلورنس فتاة لاكروا التي كانت ترمق كونراد وتعجب به وتثير غيرة صاحبها وشكوكه.

هذا الثلاثي خرج مع قافلة من البدو في ٨ يناير سنة ١٩٢٢ باتجاه الجنوب الجزائري يقودهم دليل من أهل الطوراق سكان ذلك الجنوب. وأدهشت الصحراء بروعتها كونراد. إنه مسكون بها. وبعالمها من المعادن. وكشف كونراد بأعماله وتسويده الدفاتر بالملاحظات وجمعه الأحجار أن كنز الغارامانت كان مجرد حجة ليدرس رمال الصحراء وصخورها ومهاويها... هل كان يبحث عن شيء آخر؟ ذلك ما أثار نقمة لاكروا عليه وزاد في نقمته أنهم كلما تقدموا في السير كانت فلورنس الفتاة المرافقة تزيد من التقرب من كونراد!.

وذات يوم، وقد امتلأ لاكروا من شراب الأبسنت الرخيص ضرب مرافقي الرحلة وحمل سكيناً يهدد بها كونراد الذي أخرج مسدسه بكل دم بارد... وبدأت حملة العداء والتهديد بين الطرفين وذات يوم كان كونراد في بعض الكهوف يفحص بعض الصخور الخضراء حين فوجيء بلاكروا وفتاته يدخلان عليه وهما يهتفان: الزمرد ! الزمرد... تريد أن تستأثر به وحدك؟ وطمأنهم كونراد ليس هذا بزمرد إنه حجر الأمازونيت... ولايساوي شيئاً!

اقتنع الشريكان على مضض ولكنهما في النتيجة اقتنعا أيضاً أن كونراد لايفتش عن الكنز. ولكنه يمارس هوايته العلمية أو يبحث عن شيء آخر. وعاد كونرادو ذات يوم من تجواله الصحراوي ليجد أن القافلة قد رحلت كلها ولم يبق معه أحد. قالوا: إنهم إنما اصطحبوه للبحث عن الكنز لالتجميع بعض الأحجار الصحراوية.

بعد أن مضى النهار سأل الدليل الطارقي عن كونراد فقالوا إنه في نهاية القافلة. ولما لم يجده أصر على العودة ليجده دون ماء أو زاد وسط الصحراء. لكن كونراد أدرك أن حياته في خطر. ولا بد أن يترك القافلة. وأعلن ذلك فضحك منه لاكروا وحاول رجال القافلة اقناعه بأن رومياً وحيداً لايعيش في الصحراء ولكنه أصر. وقال الدليل الطوارقي إذن أذهب معك... وقال كونراد:

معكم موت، ووحدي موت. وأختار الموت بيدي وإرادتي.

كان الرجل يعرف أنه سيكون ضحية بعض الطوارق. وتمثلت في عينيه مذابح سابقة كمقتل بعثة فلاتر الضابط الباحث وبعثة فوكولت ولكن ظل مصراً. آخر كلمة سمعها من أصحابه

ـ ستموتان جوعاً!

ولكن الدليل خرج به إلى شعب بين الرمال أوصله إلى الجماعة التي قتلت فلاتر واستقبلته المجموعة والبنادق في صدره ومن حوله، وتمسكن كونراد وسأل الزعيم ببرود:

ـ هل بندقيتك إيطالية؟

ـ نعم إيطالية

ـ إنها بنادق دقيقة.

ـ جداً.

وانطفأ التوتر تدريجياً بين الاثنين. وحل محله حديث طال. وقال كونراد إنه مجرد عالم يبحث... ونقلوه إلى ملكة القبيلة فاستقبلته عندها... وكان جمالها أسطورياً. وذاع الخبر بسرعة في الصحراء... بعد أشهر كان يلبس لباس الطوارق ويتكلم لغتهم ويتابع دراساته الجيولوجية. اندفع مع فريق صغير من البدو في منطقة صحراوية مطلقة هي صحراء الصحراء... ولكنه وجد نفسه بعد قليل دون ماء وزاد. لقد هرب رجاله وتركوا له ورقة يرجون له التوفيق وقال الدليل الطارقي الذي لم يفارقه:

ـ عندنا يقولون إنك لاتستطيع أن تنظر وجهاً لوجه إلى شيئين: الشمس والموت.

ولقد كان ذلك حقاً فإن أقرب نقطة ماء إليهما كانت على بعد ٨٠ كيلومتراً. وأمر كونراد بذبح ناقة ضعيفة شرب من معدتها الخليط المائي الكريه حتى قطع المسافة مع صاحبه... وصار عناده في التجوال بالصحراء نوعاً من الهوس... هل اقترب من كشف الكنز الذي يتحدث عنه؟

ووصل أخيراً إلى بلدة فزان المعروفة. ولم تكن في تلك الأيام لافرنسية ولاإيطالية وإنما يحكمها طاغية بدوي سمع عن هذا العالِم فأمر رجاله بجلبه إليه حياً أو ميتاً. وقبل أن يستعد الرجال للرحيل كان كونراد يطرق باب البلدة. ثم يواجه الزعيم الذي كانوا يسمونه شرف الصحراء! وأقنعه أنه مجرد باحث ولاعلاقة له بالاحتلال الإيطالي أو الفرنسي. فقربه الزعيم وسماه: كونرات المكتشف الأعظم.

انقطاع أخبار الرجل عن دنيا الناس جعلهم يعتقدون أنه ضاع في الرمال كغيره. ولكن خبر ظهوره المفاجىء في فزان فاجأ الكثيرين، والمفاجأة الكبرى كانت في التقرير السري الذي أرسله إلى وزارة الخارجية الفرنسية والذي كان ثورة في النظريات الرسمية، كما غير في النظام الاقتصادي العالمي. قال:

إن تحت رمال الصحراء ملايين البراميل من البترول! إنها خزانة موصودة مدفونة! وحدد الأمكنة والمواقع التي يوجد تحتها البترول. ولكن الخبر لم يهز الفرنسيين وقابلوه باللامبالاة أو بالسخرية. ولم يلق منه كونراد لسؤ حظه إلا الحسد والإهمال والهزء... ولكن في هذه الأثناء قتل تابعه الطارقي لأنه رفض الكشف عن مواقع البترول. واختفى التقرير السري في وزارة الخارجية. وأخذت الإغراءات والتهديدات تكثر على الرجل الذي اشتعل رأسه شيباً. وذات يوم من يوم مايو سنة ١٩٤٥ حين بلغ الزحام على اقتسام البترول العالمي غايته بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها طلب كونراد من خادمه فنجان قهوة ثم سقط يتلوى ! نوع من السم الصحراوي وضع في قهوته. لم يمت. ولكن اضطرابات عقلية أخذت تصيبه في حين كانت قضية الصحراء وبترولها تأخذ المنحى السياسي أكثر فأكثر . وحين احتل الجنرال الفرنسي لوكليرك فزان أواخر الحرب العالمية وقال: لم أحتل فزان من أجل ملك إنكلترا انتهى قتيلاً في حادث طائرة غامض. أما نهاية قصة الكنز فكانت فاجعة...

وجد كونراد في ابريل سنة ١٩٥٠ مشنوقاً في فندق عادي بمدينة غرونوبل. وسجل الأمر انتحاراً. وتعجب ضابط البوليس من أن رجلاً بطول ١٨٥ سم يمكن أن يشنق نفسه بعلاقة باب لاترتفع سوى ١٢٠سنتيمتراً على الأرض...

وكانت دماؤه تسيل من جرح بسكين بجانبه وكان بإمكانه قطع شريانه بموس الحلاقة عنده!.

الهام أن بترول فزان صار عند إنشاء المملكة الليبية سنة ١٩٥٠ من امتيازات شركة ستاندار أويل في نيوجرس الأمريكية... والسؤال المبهم: لمن كان يعمل ولحساب من كان يبحث صاحب كنز الغارامانت؟

اكتشاف الذات

هل مارست يوماً النظر في ذاتك؟ الحفر العميق في أغوارها؟ معرفة ذلك التيه الذي نسميه «الأنا»؟ أحسب أن القليلين فعلوا ذلك. أو استطاعوا مواجهة ذاتهم الخفية وجهاً لوجه. ذلك أقسى امتحان يتعرض له الانسان. ومع القسوة فقد يكون القلة فعلت ذلك لكنها لم تنشره على الناس! أما الكشف والنشر العلني فمأساة لايحتملها إلا من قدت ذاته من الصخور... من أصحاب المآسي هؤلاء الكاتب الروسي دوستويفسكي... قد لا يكون الاسم غريباً عليك فالناس تتداوله كثيراً. وإن كان الكثيرون جداً لايعلمون شيئاً عن مأساته الذاتية في اكتشاف النفس البشرية... اكتشافها ليس أقل في المخاطر ولا في الجبروت ولافي التعقيد ولعله أقل بكثير من كشف الأرض الجديدة واكتشاف غرائب الناس: إنه مغامرة في أعماق محيط أعظم يعج بما تعلم وما لاتعلم من التنانين والأفاعي والأزهار السامة والجنان المسحورة والأقمار الخضراء ورفيف الفراش!

دوستويفسكي ممن مارسوا هذه اللعبة الخطرة. شق صدره ليرى كل انسان في أعماق هذا الصدر صورة نفسه. ليكتشف الذات ومجاهلها اللانهائية من خلال ذاته. أصحاب السير الذاتية والروائيون هم أقدر الناس على مثل هذه المغامرة في الكشف... هل وصلوا إلى شيء؟ كل ما وصلوا إليه أن النفس البشرية أعمق وأعقد بكثير من أن تكتشف! إن بيننا وبين تيه اللاشعور الانساني مجاهل بعد مجاهل.

ميزة دوستويفسكي أنه شف ثم شف حتى أضحى، من خلال آلامه وشقائه، بصفاء البلور وأنه عبر عن دخائله بكل ما فيها من نبل ومن أقذار. وواجه بذلك الناس. لم يقل لهم: هذا أنتم. ولكن كل قارىء له يعرف أن في ذاته العميقة كثيراً من الثعابين والأنياب والاضطرابات والمتاهات التي كان

هذا الرجل يصفها «يخيل للمرء، للوهلة الأولى، أن يجد عالماً مغلقاً على نفسه وأنه يجد أديباً ثم يكتشف شيئاً لاحدود له، كوناً له كواكبه الدوارة الخاصة به وموسيقاه الأخرى التي تتردد في أجوائه...» إن عالمه يقوم بين الموت والجنون.

حياة دوستويفسكي كانت تمثل كل مآسي الناس كما تمثل كل عظمة عرفها الناس في وقت معاً.

حلق به المجد ثلاث مرات وهوى به إلى الحضيض من حالق ثلاث مرات. وعرف خلال ذلك سكر المجد الخالد وأذل ما في الفقر من تسكع! ولد في ملجأ للفقراء بموسكو وانتهى في مسكن قميء في حي من أحياء العمال فيها سنة ١٨٤٥ وفيما بين الولادة والوفاة سنة ١٨٨١، من القرن الماضي، وخلال السنوات الست والخمسين التي عاشها عرف كل شيء. كان أبوه طبيباً عسكرياً نبيلاً مات وأمه من الفلاحين الكادحين. وفي ملجأ للفقراء، في كوخ ضيق فيه عاش يتقاسمه مع أخيه، في طفولته. ولايجرؤ أن يتحدث عن هذه الطفولة لأنه لم يعرف الطفولة أبداً. كان يمضي أيامه منذ الصغر في القراءة منطوياً على نفسه في عالم الكتب، كانسان الكهوف. وحين شب تطوع في الجيش بسبب محنة مالية قوامها بضعة روبلات ! ويقيم بضع سنوات على هذه الحالة السوداء. التي لاصورة لها: حالة الوحدة والصمت ويكتب وهو في الرابعة والعشرين دراسة إنسانية يحملها ذات ليلة إلى نيكراسوف أكبر أدباء البلد وينتظر حكمه. كان الفقر أشنع ما يذله. أمضى ثلاثة ليال في الانتظار قبل أن يسمع جرس بابه يدق في الساعة الرابعة من الليل ونيكراسوف يدخل عليه معانقاً هاتفاً باسمه: لقد ولد عندنا أديب جبار مثل الروائي غوغول. بعد أيام كان نقّاد روسيا العظيم بيلنسكي يقول القول نفسه. ويجعل الأرض تميد تحت قدمي دوستويفسكي كأنه في حلم.

بهذه الصورة المسرحية الميلودرامية يتم اكتشاف الرجل أديباً روائياً ويدخل عالم الأدب من بابه الأوسع!

ويصبح كتابه الأول الليالي المشرقة أكثر الكتب مبيعاً في روسيا!

وأقبل دوستويفسكي يكتب لمدافعة الفقر وتسديد الديون. وكما دق جرس المجد عليه ليلاً دق الجرس مرة أخرى. ولكنهم كانوا هذه المرة من زائري الليل. ضباط وقوقازيون اقتحموا الحجرة. نثروا ما فيها. ختموا أوراقه بالشمع الأحمر. وبعد أربعة أشهر من الحبس المنفرد في الزنزانة بحصن القديس باول يحكم بالموت في مؤامرة على العرش لايدري شيئاً عنها. وتعصب عيناه ذات فجر ويسدل عليه كفن ويربط بالحبال إلى وتد ويسمع قراءة الحكم عليه بالإعدام. وتقرع الطبول ثم... يلوح ضابط بالمنديل الأبيض. لقد بدل القيصر حكم الإعدام بالسجن في سيبيريا! وهناك في رقعة يحيط بها ألف وخمسمائة وتد من البلوط يقضي مع القتلة واللصوص أربعة أعوام.....

حين تفك الأغلال من قدميه ويخلف عالم الأعواد وراءه يكون قد نسي تماماً في بلاده. وتنصل منه معارفه ومحبوه. ويكون كالنسر المحطم صحة ووجوداً ومجداً. ويعود إلى بطرسبورغ رجلاً منسياً تماماً.

بعد سنة من عودته ينشر ذكرياته عن ذلك السجن في رواية بيت الموتى وتكتشف الأمة كلها أن ثم عالماً آخر تحت العالم الهادىء الذي تعيش فيه. حتى القيصر حين قرأها بكى! واستعاد دوستويفسكي مجده فجأة كما أضاعه فجأة وينشىء مع أخيه مجلة أدبية ويحسب أن زمن الشقاء قد ولى...

ولكن لا! مرة أخرى ينقض عليه عاصف جديد. تغلق المجلة. وتموت زوجته. ثم يموت أخوه ومساعده. وتتراكم على كتفيه الديون... ولايجد من ملجأ سوى الهرب. ويهرب ولكن إلى حياة خير منها السجن السيبيري. حياة التسكع في شوارع أوروبا القذرة. حانات يقتل فيها الدخان الظلال. وعالم من الرذيلة والفساد يتفجر. وديون تطارده من قبو إلى قبو ومقامرة عقيم ويؤس قاتل يوقفه كل يوم في طابور المنتظرين أمام المصرف لحوالة تأتيه ببعض الروبلات. إنه الجحيم... واحتمل هذا الجحيم سنوات عرفته خلالها كل المصارف. وكل مكاتب الرهونات وضحكت عليه... حتى لقد رهن مرة سرواله

ليرسل برقية إلى بطرسبورغ وثوب زوجته ليقامر. وكان خلال ذلك يكتب ثم يكتب بجنون للخلاص من احتقار الدائنين! وصار كل شيء مظلماً طينياً في هذا الوجه الفلاحي ذي اللحية المشعثة والعينين الغائرتين... والذي هده مرض الصرع هدأ. ثلاثون سنة ونوبات هذا المرض ترميه في الشوارع والحانات وفي ظلمة الغرف النتنة التي يسكنها. صحيح أنه الآن في الخمسين من العمر ولكنه عانى عذاب الآلاف من السنين وعشرات الألوف من البشر... وصبر أيوب على كل هذه المهانة.

في الثانية والخمسين عرف العودة إلى بلاده. وكانت كتاباته التي يواليها كالمحموم قد أخذت تعطيه رمقاً من العيش والشهرة... لكنه ما عرف المجد إلا حين دعي لإلقاء كلمته في العيد الثمانين لميلاد بوشكين. لم يدع إلي كلمات المهرجان إلا أدباء روسيا الكبار. وحين أنهى الكلمة انفجرت القاعة بالتصفيق عدة دقائق والناس وقوف. قبلت النساء يديه. وصل مجده النهاية! وحين مات أصيبت روسيا كلها بلحظة من الحزن الصامت وازدحم البشر كالسيول أمام نعشه. واختفت الأزهار التي عليه فقد اقتطفتها الأيدي للذكرى... وترنح التابوت على الرؤوس. وخطط الطلاب لحمل أغلال السجن وراءه!... ولايجرؤ مدير الشرطة على منع أمواج البشر المندفعة مع الجثمان!... فيم كان كل هذا ؟

أدركت روسيا كما أدرك العالم من بعدها أن أحداً من الروائيين لم يصل إلى ما وصل إليه دوستويفسكي من العمق في اكتشاف الذات البشرية على حساب آلامه ومعاناته. كتاباته التي تزيد على عشرين ألف صفحة عوالم هائلة من المخلوقات. كل منها يكشف عن رذائله وعن نبله معاً في عمق عجيب لأن دوستويفسكي عانى بنفسه جميع هذه الحالات. إنه يقول بألف شكل: أنا أتألم إذن فأنا موجود! وإن تحت الطبقة الجلدية منا عوالم لاتنتهي من الأهواء الجامحة والجنون والرذيلة والنبل ومن كل شيء. في داخلنا يختلط بشكل فوضوي كل عواصف النفس البشرية... حتى الجريمة. إنه أبدع علم نفس جديداً حركياً تشتبك فيه الخطوط المعقدة وتنتثر كالتيه... كشف النفس من

خلال الكريستال الروحي الذي اصطنعه... هذا العماء المقدس تحلل على يديه.
﴿قال تعالى: وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ فهل أنت على استعداد للنظر في ذاتك واكتشاف التيه الأعظم فيها مثله؟

اكتشاف لاشيء!

المسافة بين المغامرة وبين الاكتشاف قصيرة جداً. المكتشفون بدورهم مغامرون تتراقص لهم الأحلام والرؤى فيلاحقونها كصيد الحباري والقطا. يطاردون آمالاً قد تتحقق وقد... تتناثر مزقاً على الطريق... وتتناثر معها الأحداق والأشلاء... أما أن يكون هدف المغامر اكتشاف قوة النفس لحسب مجرد تحدٍ لها. قفزة في المجهول دون هدف فلابد أن يكون للمرء قدر كبير من الإرادة الصلبة ليحتمله أو على الأقل ليمارسه... المسكونون بالرغبات الجنونية هم وحدهم الذين يحاولون... من أصحاب هذه الرغبات رجل أمريكي اسمه وليام ويلس!...

لقد تجد حولك الكثيرين ممن يحبون البحر. يقضون عطلاتهم على الموج. يغامرون في الحداق والماء. أما أن يبتلع المحيط الأعظم كامل العمر وأنت على زورق كالمحارة يرقص بك. وأن تكون وحيداً عليه فذلك يحتاج إلى قدر من الجبروت لاتحتمله إلا القلة من المجانين.

من هؤلاء كان ويليام ويليس الملاح القوي الذي لايأبه شيئاً والذي كان في الستين من العمر يوم بدأ هذا التحدي؟ لمن؟ لست تدري. المكان الوحيد الذي يتكلمون فيه عن هذا الرجل باحترام على أنه أنبل الملاحين وأحد أبطال البحار هو بيت صغير في ضواحي نيويورك البحرية وعلى واجهته لوحة بعنوان نادي المغامرات.

هناك لايتحدثون عن مغامرة - والمغامرة عمل عبثي - إلا تحدثوا عن ويليس! يسمونه في كتبهم أعظم مغامري المحيطات. في ٢٨يونيو سنة٩٥٧ في المحيط الهادي بين جزر كالاياغوس ومركيز كانت جبال من الموج يتلو أحدها الآخر كالخيل المسرعة وعليها دفة تغيب تارة وتظهر أخرى... لم تكن حطام سفينة ولكنها مركب مسطح له اسم: الأخوات الصغيرات السبع، مصنوع من جذوع الأشجار المربوط بعضها مع بعض بالحبال. وعليها هذا الرجل: ويليس

وحيداً يصارع جبال الماء وهو في غرفة للقيادة صغيرة... بلى. عليها أيضاً ببغاء من أعلى الصاري المتموج وقطة سوداء. كان قد مضى عليه عشرة أيام. حين ربط نفسه إلى بعض الجذوع بعد أن صهره ألم لاينتظره في بطنه... ومرت الساعات الطويلة ومر الليل كله قبل أن يجد من القوة ما يوصله إلى خزانة الأدوية في غرفته. لم يجد سوى الاسبرين فابتلع كمية منه. حاول إرسال طلب استغاثة .S.O.S ولكنه وجد جهازه دون بطارية. ليس سوى محرك يجب أن يدار بيد وترسل الإشارة باليد الأخرى. ولم يتلق أحد الإشارة فيرد عليها... انهار القوي الجبار فيه. ووجد نفسه كالفأر المسكين. إنه مع البحر العظيم وجهاً لوجه! تذكر زوجته التي كانت تقول له إنك متزوج من البحر لا مني! لم يكن زواجاً ثنائياً ولكنه ثلاثي!.

كان قد اختار مركبه وصنعه من نوع خاص من الخشب. وقضى أسابيع يأكل أكباد كلب البحر ليجد بعض الطعام الطازج لئلا يمرض. وكان عليه وحده أن يكون في كل مكان من المركب ليراقب كل شيء. وعليه دوماً أن يكون عيناً على الشراع وأخرى على الدفة. ولم يكن يستطيع النوم إلا غفواً. إنه ألماني الأصل، من هامبورغ لم يضع والده قدماً في البحر، ولكن السفن الكبيرة أغرته. كان عمره عشرين سنة حين وصل إلى أمريكا. ولكنه سرعان ما أصيب بالخيبة المريرة. كانت السفن الشراعية تودع آخر مرافئها وملاحيها فصار نادلاً في مقهى. صياداً للسمك وحطاباً وبناءً وعامل سبك... لكن لم يفوته ركوب البحر في كل فرصة. امرأته كانت تقول له: أنت عاشق للبحر. مجنون به وليس بي! ولكنها حين سمعت بمشروع سفر له على مركب بدائي في عرض المحيط الهادي وصفته بأنه المجنون الكامل! ولقد ذهب فعلاً بعد أشهر. وقطع المحيط مع خمسة من الملاحين على المركب كون تيكي... واشتهر كملاح مغامر. ولكنه قرر بعد ذلك أن يذهب وحيداً... وقالت زوجته هذا هو الجنون بعينه!

ماذا كان يقصد ويليس أن يثبت أو يكتشف؟ لاشيء فقط أن يركب الموج. بعض الملاحين الذين يسافرون وحدهم كانوا هاربين من المجتمع ويريدون

إظهار احتقارهم له. أو يهربون فزعاً منه. ولكن ويليس لم يكن من هذا النوع. فقد كان حب الماء الأوسع يسكنه! لايريد اكتشاف شيء ولا تحدي شيء ولكن استدارة الأفق البعيد تكمن في أعماقه وتناديه. لاشيء غير ذلك. لاالمال لاالشهرة لاالمجد إنه سعيد مشهور محبوب. منفتح على الناس. لكن زوجته كانت تعرف أنه قبل أن يتزوجها كان قد تزوج الزوجة الأخرى البحر!

وذهب ويليس على مركبه في أول يونيو. كان على الشاطىء في وداعه كاميرات الصحافيين وجمهور كبير. واغتصبت زوجته ابتسامة أخيرة له. في اليوم الستين لسفره حلت به كارثة. تسرب الماء من خزاناته بعد أن تحللت وصلاتها بالملح. لم يبق عنده سوى ست وثلاثين ليتراً فكان يصطاد السمك ويمتص ماءه. وقد تأتي عليه أيام لايصطاد شيئاً. الطبخ على السفينة لم يكن يجري. الهنود لديهم الماشيكا في جبال الآند، حب يقطفونه ويجعلونه طحيناً ثم كرات صغيرة يبتلعونها فتعطيهم قوة الحصان! ولديهم الراسبادور. السكر الخشن...

في اليوم السبعين ظهر بجانب المركب: (توم) الطويل. من هو؟ إنه اسم أعطاه ويليس لسمكة قرش كبيرة طولها ثلاثة أمتار ظلت ترافقه وتطوف حوله طويلاً ثم لحقت بها سمكات أخرى. صاروا موكباً.

خاف أول الأمر ولكنه اعتاد وجودها وصارت تسليته... لو سقط في الماء لسبقته أسنان توم الطويل قبل أن يبتل! ولقد سقط مرة وهو يصطاد والمركب سائر فتعلق بالصنارة وأخذ يتقدم ببطء شديد حتى لحق خشب المركب وتوم الطويل يدور حوله ويدور! لو ناله القرش لما نال سوى الجلد على عظم معروق. لم يكن وليمة فاخرة. ثم ما أكثر العواصف، بعد هذا، بصوتها الصاعق. وسقط ذات يوم عن الصاري فأغمي عليه مرتين... ولعبت الرياح المالحة بعينيه فاضطرب نظره.

في ١١ اكتوبر أخيراً بدت له جزر ساماوس في الأفق. بعث يستغيث! وبعد أيام كان على الطائرة الراجعة إلى نيويورك. استقبل بمهرجان. صار

شهيراً. صور. مقابلات. تواقيع. ولكنها كانت كالنار في القش سرعان ماذهبت مع الريح!... الوحيدة التي كانت لاتشك في أن ويليس سيعود مرة أخرى إلى البحر هي زوجته!

ولقد ذهب في الواقع سنة ١٩٦٣ وله من العمر سبعون سنة فاخترق المحيط الهادي وحيداً مرة أخرى وعلى سفينة. لم تثر رحلته هذه ضجة واسعة. كان يريدها رحلة داخلية خاصة! هذه الرابطة الغريبة مع الموج كانت تثير زوجته. ولكنه لم يستطع، كما لم تستطع هي كبحها! ولكنه مرض على مركبه بعد شهرين فالتقطته بعض السفن وأعيد إلى الولايات المتحدة.

بعد سنة واحدة عاد كرة ثالثة يقطع المحيط من الغرب إلى الشرق! دوماً على ظهر قوقعته الصغيرة: كان قد قطع ثلثي الرحلة حين التقطته بعض سفن الصيد نصف واعٍ... وكان من العناد بحيث قال لهم: اتركوني أستطيع متابعة الإبحار وحدي!

في حزيران سنة ١٩٦٨ اجتمع عدد واسع من الصحفيين والجمهور على رصيف نيويورك البحري لمشاهدة ابن الخامسة والسبعين يبحر على سفينته الصغيرة للمرة الخامسة بشعره الأبيض ولحيته الكثة. وفي ١٨ سبتمبر أعلن بحار المراقبة في سفينة روسية رؤية مركب صغير دون شراع في عرض البحر. حين التقطوه وجدوا أن يوميات المركب الصغير تنتهي في ٢٠يوليه وفيها: فاجأتني عاصفة أخذت مؤونتي. ليس عندي ما آكله ولا أسهم نارية للاستغاثة وفي بعض الأوراق كلمة البحر هو مملكة الشجعان!

ولم يجدوا أحداً على السفينة! زوجته حين تلقت بعض حاجاته قالت:

ـ كنت أعلم أنه سيذهب يوماً مع الزوجة الأخرى: البحر! ومع ذلك كنت أنتظره!

أي عبثية في هذا المصير؟ وقبل هذا وبعده أليس يمثل ويليس في مغامرته العبثية وفي ملاحقته اللاشيء حال كل واحد منا في هذه الدنيا؟

«ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام».

الاكتشاف القاتل

هل تذكرون قصة المأسوف على حماقته: جحا الذي أراد أن يتخلص من الأطفال الذين يطاردونه فقال لهم: إن في بيت فلان عرساً ومهرجاناً فلما رأى تراكضهم قال: لعل ذلك صحيحاً وأقبل يركض وراءهم؟ إنها هي نفسها قصةُ الكشف المستحيل التي نتحدث فيها!... حين تدفق الذهب الأمريكي، اثر اكتشاف أمريكا، على أوروبا حسب الناس أن فيها القناطير المقنطرة من الذهب تجرف عن الأرض جرفاً وصاغوا من أوهامهم وجود مدن كاملة مبنية من الذهب الثمين ثم راحوا يبحثون عنها... في ظلمة الغابات البكر والأدغال اللانهائية! الظمأ إلى الذهب نوع من الجنون ومع ذلك فما من انسان إلا وهو على استعداد لأن يصاب به... على الأقل في لحظة من اللحظات! ولو كان ذلك بين الأفاعي كجذوع الشجر والخفافيش مصاصة الدماء وزمر الوحش...

قصة مدينة (الدورادو) أي المدينة الذهبية ظلت إلى عهد قريب تلهب خيال الكثيرين تغريهم، تجرهم إليها، تدفعهم إلى الموت في الغابات الداكنة وعلى الصخور وبين الوديان التي تضيع فيها الأصداء... دون أن يصلوا! قصة الماجور فوسِت هي إحدى القصص. ولعلها أيضاً من أواخر هذا القصص.

في سنة ١٩٠٦ وقف هذا الضابط الإنكليزي الشاب في ردهة الجمعية الملكية للجغرافيا في لندن ينتظر عقداً بالعمل لحساب الجمعية في أمريكا اللاتينية، في المنطقة الأمازونية منها. كانت ماتزال من البقاع العمياء على خرائط العالم. وذهب فوست، بعد أن درس كل ما وقع تحت يده وعينيه من الكتب والدراسات عن المنطقة. لكن التعامل مع الأرض والناس غير التعامل مع الكتب. وأنت لا تعرف معنى لسعة الحشرة مثلاً هناك إلا حين يصيبك الغضب المجنون وتلتهب رقبتك حمراء متورمة منها... ومع ذلك فقد رسم فوست ألف كيلومتر من الحدود التي لم تكن مرسومة. وخاض الوحل والعتمة

الغابية، وألوان الأفاعي والحشرات والطير فيها. وتنقل على الأطراف القصوى من بوليفيا والبيرو والبرازيل... وكان هذا نجاحاً كبيراً على الأرض فالطائرة لم تكن عرفت كما لم تكن آلة التصوير بعد قد تكاملت للرصد والتصوير. قضى فوست في ذلك سنوات. وخرج من جهنم الخضراء هذه بنتيجة طيبة. على أي حال. كلف بمهام أخرى بعد ذلك ونجح. صار الماجور فوست أحد الخبراء المعروفين بالمغامرة وإن لم يجد في الغاب شيئاً إلا مطاردة الوحش والطير وجمع المخالب. وعمل بعد ذلك في الهند وفي سيلان كما عمل لحساب البرازيل وبوليفيا والبيرو...

لكن الغابة مالبثت أن أغرته بأسرارها، مالبثت أن مسته بأسطورة الإلدورادو مدينة الذهب. صدق القصة وأخذ يرسم الخرائط ويخطط ويبني الأحلام. وذات يوم من سنة ١٩٢٥ عاد يغوص في جهنم الخضراء (كما يسمون الغابة الأمازونية) ولكنه كان يغوص فيها هذه المرة لحسابه في بعثة صغيرة العدد جداً ليس معه سوى إبنه جاك وهو في العشرين من العمر ومصورٍ شاب مثله يدعى ريمل... خبرته في الأدغال كافية ولايريد لسره أن يذاع... إنه يطارد الثروة الكبرى التي عجز السابقون عن الظفر بها عدة قرون:

كان موقناً أنه واصل إليها ، وأنه عرف على خرائطه مكانها المجهول.

معلوماته التي جمعها تؤكد أن هذه المدينة الدهرية كانت مبنية بالحجارة الجبارة في قلب الغابات بعيداً وراء شبكة الأنهر وأنها محروسة بتمثال يرفع ذراعه. أما مناجم الذهب فتقوم إلى جوارها. المنجم الأعظم الذي لابد أنه موجود في بعض المواقع حولها لابد من أن تكشفه البعثة، فإنك تجد قطع الذهب وفتافيته منثورة في الأنهار الأمازونية.

عبر فوست مع الشابين الأنهر حتى وصلوا إلى نهر الموت. هناك حيث يظن أن آخر بعثة للباحثين عن المدينة المجهولة قد ضاعت. وبعد أسابيع من الآلام، ومن التهام الحشرات ومن رعب الأفاعي الكامنة على الصمت تحت الدغل أو على جذوع الشجر، وصلت البعثة إلى قرية كالابالوس: إنها ليست

أكثر من مضرب خيام فسيح للهنود الذين يحملون هذا الاسم بين القبائل الهندية. بعد يومين من وصولهم حرك فوست مبرقته التي كان يحملها وأرسل إلى رؤسائه وإلى زوجته في ريودى جانيرو قائلاً:

سنغادر غداً إلى سييرا (يعني الجبال الغربية) شيخ القبيلة إيكزاراري رفض أن يزودنا بالأدلاء. لاتبحثوا عنا قريباً. فسوف تطول الغيبة وطالت الغيبة فعلاً!

كانت هذه البرقية آخر أخبار الرحلة وآخر أخبار الماجور فوست! أين غابت البعثة الصغيرة؟

ظل هذا السؤال أكثر من ثلاثين سنة يظهر ويغيب في الصحافة، وتثار الضجة حوله وتختفي. فوست كان خبيراً يثق الناس جداً بقوله. وأخبار الذهب تثير الفضول والجشع. هل وصت البعثة المدينة الأسطورة؟ هل أكلها الوحش والطير في مجاهل الغابات؟ هل قتلها الهنود؟ إشارات الاستفهام ظلت ظمأ أخرس دون جواب. صحف العالم كانت تسأل كلما جاء خبر يتعلق بالبعثة التي غابت ولكنه الخبر يبقى دون غد.

خرجت ست بعثات بعد ذلك تفتش عن البعثة المفقودة وضاعت آثار ثلاثة منها. زعيم القبيلة حين أروه صورة الماجور وسألوه عنه قال: بلى! رأيته. رفضت إعطاءه الأدلاء لأن أحداً منا لايعرف المناطق التي سوف يرودها. وحين ذهب ظللنا نتابع نيرانه التي يوقدها حتى اختفت. كان السائل صحفياً. لحوحاً أورلاندو فيا بواس... هل كان صادقاً؟ الصحفي يشك في ذلك ولكن كان عليه أن ينتظر ليعرف شيئاً آخر... كان الزعيم الهندي يكذب!

وفي سنة ١٩٤٢ عاد أحد القسس من المبشرين يذكر أنه وصل المنطقة الغابية وأنه سأل القرية عن فوست وابنه فجاؤوه بفتى أبيض الجلد أزرق العينين وقالوا إنه ابن الابن فمن عادتهم تقديم إحدى نسائهم للضيوف وقد سموه دوليبة أي الذي لايشبه الآخرين... وقامت بعثة وأتت بالشاب وتبنته زوجة فوست... ولكنه لم يتأقلم مع الحضارة بقي وحشاً وهرب بعد سنوات...

لايعرفون أين هرب؟ لكن مصير البعثة لم ينكشف... ظل سراً إلى سنة ١٩٤٨.

في تلك السنة وصلت القرية الهندية بعثة أدركت شيخها وهو على فراش الموت وسألته عن مصير فوست فاعترف أنه كان يكذب وأنه قتله وقتلت القبيلة ولده ومرافقه! بعد ثلاث سنوات عادت بعثة أخيرة إلى القرية لتحمل رفاة الماجور وسألت ابن الزعيم عما جرى سنة ١٩٤٥ ومرافقه أما الماجور فدفن على ضفة النهر وألق الآخران في المياه... وانتهت أسطورة مدينة الذهب.

وحفرت البعثة حيث أشار ابن الزعيم فوجدت بقايا عظام وجمجمة حملتها إلى ريودي جانيرو... واضعة بذلك نهاية مأساوية للبعثة...

هل انتهت فعلاً الضجة حول فوست؟

لم تنته. تسلمت زوجته وهي في لوزان الجمجمة فقال إنها ليست لفوست... كيف عرفت؟ من أسنانها! فقد كان لفوست جسر صناعي في أسنانه. وسئل طبيبه في لندن فأيد ذلك وليس في الجمجمة ذلك الجسر وعاد اللغز يمد لسانه للجميع... أين ذهب الرجل ومرافقاه؟

لايشك الناس أن فوست قد مات الآن منذ زمن وأن ولده ومرافقه قد توفيا بدورهما وأنهما في أحسن الأحوال، في أرذل العمر. ولكن أسطورة المدينة الذهبية عادت تحيا من جديد بهذا الغموض. أليس الأمر يتعلق بالذهب؟ أليس الناس أكثر ميلاً للأمل في الحصول عليه منهم إلى اليأس منه؟

اكتشاف الأسطورة

منذ زمن طويل يقرأ الناس الايلياذة والأوديسة الملحمتين اللتين يقال إن هوميروس الشاعر الإغريقي القديم قد أبدعهما قبل ألفين وخمسمائة سنة. ومنذ زمن طويل والناس يعتقدون أن الرجل كان يحلم ويتخيل... بلى كان يحلم ويتخيل وإذا كان القلائل يشكون في وجوده فلم يشك أحد في أنه جمع الالياذة جميعاً من أناشيد سبقته.

لكن لم يعرف أحد أن لأحلامه وتخيلاته سنداً من الواقع والتاريخ إلا منذ عهد قريب. في القرن الماضي بدأت الشكوك. هوميروس الشاعر كان يغني في الالياذة حصار بلد حقيقي وجد على الشواطىء الشرقية من بحر ايجة. ومنذ شاع في الناس ذلك غامر الكثيرون لكشف هذا البلد الأسطوري دون طائل. واحد فقط ظفر أخيراً به وتابع الحفريات الأثرية ووجده... هذا المكتشف هو هنريخ شليمان!

كان الرجل من أكبر المغامرين. وحين بدأ البحث كان في حوالي الستين من العمر، ولم يكن تحت يديه شيء من أدوات العمل سوى فكرة: هي أن مدينة طروادة، وهي مسرح الالياذة وموضوعها، مدينة حقيقية ولابد من وجودها في مكان ما واستخدم أمواله في مشروعه ونجح المشروع!

وشليمان ابن لبقال في قرية ضائعة بألمانيا قرب هامبورغ. ولد سنة ١٨٢٢ . صحيح أنه افتتن منذ الصغر بقصة طروادة وهيلين الفاتنة التي كانت سبب الحرب ورهانها في تلك الملحمة الهوميرية. ولكن الذين كتبوا الكتب عنه بعد ذلك طرزوا هذه الطفلة بالأساطير وجعلوها تارة حواراً يقوم به الطفل مع أبيه حول المدينة المفقودة أو نذراً ينذر به لاكتشافها أو يختلقون فلاحاً يأتيه سكران وهو فتى فيقص عليه بلغة لايفهمها ولكنه أحب

موسيقاها قصة هيلين وطروادة فيتعلق الفتى بالقصة!... كل ذلك من الأساطير!... الأكيد الوحيد أن قصة اختطاف هيلين والهرب بها إلى طروادة ملأت ما بين صدغيه بما فيها من حصار البطل أخيل لها. ومصرعِه ثم الحصان الخشبي الذي تركه المحاصرون بعد أن عبأوا قلبه بالرجال.

ثم هدم أهل طروادة بعضاً من سورها وبابها لإدخال الحصان ثم خروج المحاربين والاستيلاء على المدينة وإحراقها... هذه القصة ملأت خيال الفتى شليمان وبخاصة مصير الأميرة الجميلة!

وفي بقالية في القرية وكان في الرابعة عشرة حلت الفتاة مينا محل هيلين في أحلامه. وقد عمل في هامبورغ عامل صندوق لبقالية تبيع بالجملة خمس سنوات. ثم حين عاد استقبل أحدهما الآخر بالدموع. ولكن حياته في القرية كانت جحيماً مع أب أدمن السكر والنكد. فغادرها بعد أن تعاهد مع فتاته على الوفاء والزواج. وتطوع بحاراً على مركب مالبث أن غرق بعد ثلاثة أيام. وأنقذوه فأكمل طريقه إلى امستردام في هولندا حيث عمل كاتباً لدى احدى الباعة... وهناك وجد هوايته الحقيقية: تعلم اللغات. كان مايزال في الثانية والعشرين حين كان يتقن سبع لغات... والغريب أن الاغريقية اليونانية لم تكن بينها... قرر أن يدرسها فيما بعد! وأن يكرس نفسه بعد الآن لجمع المال.

لم يكن في خاطر شليمان أي مشروع حين اتخذ هذا القرار. واتخذ العمل بالأصباغ وبخاصة صبغ الانديجو (الأزرق الناصع). وسرعان ماصارت لديه مكاتبات مع أنحاء متفرقة من العالم وصار لديه رصيد في المصرف وعاد إلى قريته ليجد أن حبيبته مينا قد تزوجت. كانت ضربةً قاسية لشليمان تلك الضربة أعادته إلى أحلامه الأولى بهيلين المختطفة وطروادة... ولضياع الأحلام! وذهب يائساً إلى بطرسبورغ وتعلم الروسية في ثلاثة أسابيع. وفي فترة قليلة صار ملك صبغة الانديغو وجنى ثروة حسنة جداً...في الخامسة والثلاثين من العمر كان يتقن خمس عشرة لغة وقرر بعدها أن يتعلم اليونانية! سافر الأسفار العديدة استقبل كرجل أعمال كبير في البيت الأبيض وصارت

له عمارات في أنحاء الدنيا. أكثر من هذا صارت لهذا العصامي مراسلات مع كبار علماء العالم... مع كل ذلك لم يغادره حلم طروادة!

كان في كل مرة يعبر عن رغبته في تخصيص ثروته لكشفها كان مستمعوه يبتسمون وكان الناس يستغربون هذا الحلم الطفولي من رجل أعمال كبير. كانوا يسخرون به وراء ظهره. مالهذا البائع للأصباغ وللتنقيب الأثري؟ ماله ولطروادة هذه المدينة الأسطورية الضائعة ولفاتنتها هيلين؟

وتزوج شليمان أخيراً ولكنه كان الزواج الفاشل ولم تكن زوجته بخاصة تهتم بأهوائه اللغوية وبأحلامه الأثرية فقضى الوقت في الأسفار من كاليفورنيا إلى الصين إلى مصر إلى الهند. ذهب إلى كل مكان إلا إلى اليونان. هل كان يخاف أن يفجع بحلمه أيضاً؟ من يدري؟ ثم إنه كان يتصور أنه لم يجمع بعد المال اللازم للبحث والكشف، هذا الكشف الذي مانفك يكبر في نفسه حتى غدا هدف الحياة... كل شيء حققه حتى الآن إلا هذا الهدف.

كان في الخامسة والخمسين حين قرر شليمان أن يغير زوجته. وبعث إلى الصديق القديم الذي علمه اليونانية في بطرسبورغ وأضحى الآن أسقف أثينا يرجوه أن يختار له زوجة يونانية جميلة ولكن حسنة الثقافة. وكان في أمريكا حين تلقى جواب الأسقف مع صورة لفتاة جميلة في السادسة عشرة من العمر... وخشي شليمان فارق السن الكبير ولكنه مع ذلك قدم اليونان ولقي صوفيا ومنذ تحادثا عن هوميروس وملحمته تفاهما... وأحبها وأحبته على قوله ومنذ هذه اللحظة قرر شليمان المضي قدماً في تحقيق حلمه والبحث عن طروادة ترك كل أعماله وسافر إلى الشاطىء التركي من بحر ايجه يفتش عنها.

ليس من الضروري أن نطيل هنا في قصص البحث والخرائط والتأمل والحفريات الفاشلة. ولكن شليمان على ضوء معلوماته الهوميرية القديمة عن عيون الماء الحارة والباردة حول تل تقوم عنده قرية حصارلك، قرر في النهاية أن يحفر في هذا التل... ولحسن حظه... وجدها!

أتى بمائة وخمسين عاملاً وعمل في الحفر. لم يكن عنده أي خبرة بالآثار

وقيمتها هذا البقال الهامبورغي القديم. ولابكيفيه الحفر... ولكنه حفر. وظهرت معه أول مدينة ثم ظهرت تحتها أخرى ثم ثالثة... ورابعة كان يهشم مايجده ليحفر أعمق فأعمق... وجد سبع مدن بعضها فوق بعض قبل أن يجد طروادة! فتح من خلالها خندقاً واسعاً حتى وصل إلى الأسوار القديمة والقبور على عمق أحد عشر متراً. في ظنه أن طروادة لابد أن تكون المدينة الأعمق المحترقة كان تعامله مع آثار المدن التي وجدها وحشية مدمرة.

ولكنه في بحثه المحموم عن مدينة أحلامه لم يأبه لها إلا بعد عدة مواسم من الحفر...

أقام بعض الأتراك العثمانيين العقبات ضد حفرياته فأسكتهم بالرشاوى. أما الضجة الحقيقية فجاءت من العلماء والأثريين في أوروبا. كانوا أثريين من منازلهم ظلوا يفتشون في الورق عن المدينة قرناً كاملاً وأثارهم أن يأتي تاجر جريء فيجد المدينة وهو لايملك أي وسيلة أو طريقة للحفر... هاجموه بشدة أنكروا نتائجه. كتبوا أنها ليست طروادة التي لم توجد في الغالب إلا في خيال هوميروس... ولكن شليمان أقنع الناس حين وجد باب قصر بريام ملك المدينة وآثار الحريق فيه!

ليس هذا كل شيء. بعد ثلاث سنوات من الحفريات المتصلة أبصر شليمان شيئاً يلمع في الأرض. طلب من زوجته إبعاد جميع العمال بأي حجة ممكنة وفعلت. وحين عادت إليه وجدته يزحف على يديه ورجليه ضمن بعض الحفر في الأطلال ويحفر في الأرض بيديه ليجمع بعض قطع الذهب والنقود الفضية المسودة. كان يحفر تحت جانب من السور الذي يهدد كل لحظة بالانهيار فوقه ولكن منظر اللقى الأثرية الثمينة كان يغريه. وأخرج هذا الكنز بمعونة زوجته في شالها وأقبلا إلى غرفتهما في الفندق يتأملان الموجودات كان فيها أساور وأقراط ذهبية وأحجار ثمينة مثقوبة وأطواق. ولكن فيه أهم من هذا كله تيجاناً أنثوية من الذهب. وكان واحد منها يتصل بسلاسل ذهبية إلى عقد في العنق. سبعين سلسلة قصيرة و١٧ أخرى طويلة قد عقدت حلقاتها على شكل

القلوب وينتهي كل منها بتمثال طروادي صغير ويستدير بالجبهة سلسلة تربط التاج بالرأس.

ووضع شليمان هذا التاج فوق رأس زوجته وصدرها وجلس يتأمل. بعد ذلك بفترة صورها بهذا التاج الذي زعم أنه لابد تاج هيلين الملكة... ولكن لم يصدقه بذلك أحد.

في سنة ١٨٩٠ حين مات شليمان بعد أن كشف أيضاً أطلال مدينة سيفا كانت أجمل لحظات حياته خلال سنواتها الثماني والستين لاهي الثروة ولاهي الكشف الأثري ولكن لحظة أن وضع التاج على رأس زوجته صوفيا وذهب الخيال به إلى هيلين قبل ٢٥٠٠ سنة!.

اكتشفوا ولكن... طريق الخليج إلى الهند!

قصة فتح الاسكندر المقدوني الذي عبر من مقدونيا إلى الأناضول إلى الشام ثم مصر حتى واحة سيوا. ثم عاد ففتح بابل في العراق ثم ايران ثم السند. كل الناس تعرفها هذه القصة. فهل تعرف عزيزي المستمع قصة نيارخوس اليوناني؟ وكشف الخليج العربي؟ منذ القديم القديم، الصفحة المائية الضخمة للخليج العربي رأت الكثير على سطحها من العابرين بالأشرعة. رأت الملايين من التجار والملاحين والصيادين والمجاديف وارتجاف الصواري مع الريح والغرقى مع اللؤلؤ.

مرت على ذلك، المئات والآلاف من السنين. التجار العرب القدامى في جنوب الجزيرة كانوا يعرفون طريق الهند وإن كانوا حفاظاً على مصادر تجارتهم الثمينة. يعتبرونها السر الحرام. بضاعتهم الرائجة من المر واللبان، البُخُور الفلفل الطيب. الزنجبيل. العاج. العقيق الأحمر. اللازورد. خشب الصندل والدارسين... كلها كان يجب أن تأتي من مصادر غامضة يحيطونها حتى بالأساطير لتبق لها روعة السر. يجب أن تحمى من المتطفلين... كانوا يزعمون إن خشب البخور العطر تحمله النسور الهائلة لايدرون من أين؟ ولكنها تبني به أعشاشها. وهم يعانون الأمرين لدفع هذه النسور وسقوط تلك الأعشاش حطاماً يجمعونه. وأن جزر واق الواق المجهولة هي مصدر الدارسين والصندل. وأن العقيق حجارة يلهو بها أطفال جماعة عيونها مشقوقة بالطول...

ومرت الأيام حتى إذا كانت حملة الاسكندر ووصلت إلى الهند قبل الميلاد بثلاثمائة وثلاثين سنة، خطر لهذا الفاتح الشاب الذي وصل الهند براً أن لابد أن يكون ثم طريق في البحر يوازيه ويتبعه التجار العرب... ولابد أن هؤلاء التجار ارتاعوا وهم يسمعون بالخبر. ولكنها إرادة الاسكندر فاتح الدنيا المعروفة يومذاك ومن ذا الذي يجرؤ على دفعها؟

اختار الاسكندر من جنده قائداً عتيق الصلة بالبحار ليكشف له هذا الطريق التجاري البحري الهام نيارخوس! اغتصب أعداداً كبيرة من السفن التي وجدها في نهر السند وفي ميناء كراتشي ووضعها تحت إمرته. وحين عرف الجند أن القائد هو نيارخوس تطوعوا لركوب الأشرعة فقد كانوا يعرفون مهارته ويثقون به. وبعد أن أطلق الاسكندر على ميناء كراتشي اسمه: ميناء الاسكندر ودع نيارخوس:

إلى الملتقى في بابل!

في أواخر سنة ٣٢٦ق.م. تحرك الأسطول. سفن شتى كانت قوامه. ويبدو أن أحداً من التجار العرب أو الأدلاء لم يتطوع معه. ولكنه كان على الدوام يحاذي الشواطىء: قريباً منها بحيث لاينقصه الماء ولا المؤن، وبعيداً عن الأخطار والعواصف وأرض الأساطير التي يتحدث عنها العرب برهبة ورعب... ولكن هذا القرب من الشواطىء كان أول المخاطر وكم توقف نيارخوس لينقذ سفينة غاصت في الوحول الشاطئية. وكم لف ودار حول جزر صادفته فوجد أنه مايزال في مكانه في نهاية المطاف؟ وكم تحطمت من سفينة على الصخور رمت بها العواصف الجامحة؟

وأخطر ما كان يرهبه من هذا القرب هم لصوص البحر. أقوام من الزط والبلوج كانت تنقض في الليل على قافلته البحرية لتأخذ منها بعض الأسرى للبيع...

زادت في مصاعب نيارخوس وهمومه مشاكل الغذاء والشرب لم يكن مستعداً لها الاستعداد الكافي. وكان يحسب أنه واجد على الطريق ما يحتاج ولكن قحط الشواطىء التي مر بها منذ الأيام الأولى أتى على كل مؤونته المحدودة. وأخذ الجوع يلوي البطون والعطش يلهب الألسنة والأمراض تختطف الملاحين على السفن... ولم يكن يستطيع هذه المرة الاقتراب من الشواطىء خشية أن يفر الرجال في اليابسة فلا يعودون!

ظل الأمر مراوحة بين الحصول على بعض الغذاء يقتسمه الرجال

ويكتفون بالقليل الموجود منه، وبين انعدام المؤن حتى كانت الجماعة تضطر إلى الاكتفاء بأكل جذوع النخيل الرخصة. حتى وصل الأسطول شواطىء كرمانيا (كرمان) فاستطاع الحصول على الزاد والماء...

بعد حوالي خمسين يوماً عرف نيارخوس أنه وصل خليج عمان. كان قد أوغل فيه. وعرف من بعض العبيد الذين يجذفون على المراكب أنه وصل أول الطريق إلى الخليج الذي كان الاغريق يسمونه بالفارسي. ومرت السفن برأس مُصَنْدم.

واجتازت مضيق هرمز ثم ألقت بالمراسي عند مصب نهر أتاميس وهو (منياب) اليوم في بقعة خصبة غنية بكل أنواع الغلات إلا الزيتون... الذي يشتهيه الاغريق! على جانبي النهر استراح الملاحون. نسوا العواصف والجوع وعضة العطش. فالغذاء غدق والماء وفير. وحين عرف نيارخوس أن قائده الاسكندر كان في داخل ايران على مسيرة خمسة أيام منه ترك جماعته في جنتها الموقتة وذهب إليه يقدم تقريره عن الرحلة والأسطول والطريق. في حين أخذ البحارة في ترميم السفن وإصلاح الأشرعة وتشحيم الجوانب. فلما عاد نيارخوس بعد حوالي الشهرين كان الأسطول على استعداد لمعاودة المسير...

اجتاز قرب الشاطىء مدينة أورغانا (وهي هرمز) وجزيرة أوركيا (وهي قشم اليوم) ثم جزيرة يسميها الرواة كاتيا ولعلها جزيرة قيش أو قيس وسارت السفن شمالاً حتى موقع بوشير. هناك نزلوا البر عند نهر رودهله ثم عند نهر هندياني... لكن الماء كان ضحلاً كثير الصخور بحيث كلفهم هذا التوقف كثيراً من المتاعب والحذر الشديد... وأخيراً انتهت الرحلة قرب الأهواز الحالية... ولكن بعد أن قضت في المسير ١٤٦ يوماً منها ثمانون يوماً على الماء!

هل نجحت الرحلة؟ لم يأبه الاسكندر ولانيارخوس للملاحين الذين رميت جثثهم في الماء. ولا لأيام الجوع والعطش التي مرت بهم. ولا للشرايين التي تقطعت وهي تجدف أو تحول الأشرعة. كان هم الاسكندر أن يعرف الطريق البحري إلى الهند كما عرف بنفسه الطريق البري وأن يعرف المواقف

الصالحة عليه للتزود بالمؤن والماء ولبناء الموانىء والمدن. وقد نجح نيارخوس في كل هذا... ولكن على الشواطىء الشرقية من خليج عمان والخليج العربي فقط... بقي إكتشاف الشاطىء العربي الغربي ومكان جرعا مدينة التجار العرب... وهكذا شغل الاسكندر في السنة الأخيرة في حياته بهذا الهاجس أرسل إلى صيدا في لبنان خمسمائة وزنة من الفضة لسكها نقوداً كما استأجر الملاحين اللازمين. وكي يبني السفن نفسها في المدن الفينيقية على شواطىء الشام. وقد بنيت هذه السفن وحملت مفككة أجزاء وأقساماً إلى بلدة بيسكوس ولعلها الرمة على نهر الفرات ثم نقلت على القوارب من النهر إلى الخليج... أضاف إليها الاسكندر بعض السفن التي بناها بأشجار السرو قرب بابل...

مرت أولى حملات الاسكندر بجزيرة فيلكا حتى انتهت إلى جزيرة البحرين ولعلها اصطدمت هناك بأسطول جرعا فعادت لاتحمل إلاذكريات مصائد اللؤلؤ هناك. ومرت الحملة الثانية حتى وصلت الشواطىء التي ندعوها اليوم أبو ظبي وبلغت الثالثة رأس مصندم وطافت به ثم عادت. وقد اكتملت للاسكندر بذلك معرفة الخليج وبخاصة معرفة مواعيد الرياح الموسمية وحركة السفن ومصادر البضائع.

بسبب هذا النجاح أخذ الاسكندر باعداد حملة أكبر وأقوى بقيادة نيارخوس مرة أخرى ليدور حول بلاد العرب، الجزيرة العربية من الخليج إلى البحر الأحمر. يقابلها أسطول آخر يبحر من برزخ السويس لاكتشاف شواطىء هذا البحر ولقاء الأسطول الآخر. يقول اليونانيون إن هذا الأسطول وصل اليمن... لكن أسطول نياخورس لم يتحرك من مكانه...

لقد مات الاسكندر فجأة بعد مرض أيام سنة ٣٢٣ مات أول المستعمرين وتوقف كل شيء!

هل انكشف لك السر في كل تلك الصليبيات التي شنت منذ الاسكندر إلى اليوم على بلاد العرب؟

حملة الأعلام

في مدينة سان باولو هذه التي يسمونها في البرازيل بالقاطرة لأنها تجر بقوتها الاقتصادية والسكانية الضخمة كل البرازيل هناك. في بعض ساحاتها العامة على كتف الغابة تمثال ضخم جداً لمركب عليه مجموعة من الرجال يتزاحمون إنهم يسمونه los Bandeirantes أي (حملة الأعلام) يمر به اليوم آلاف الناس دون أن يسأل أحد مِن هم هؤلاء الغزاة؟ ومن غزوا؟ وأين غزوا؟ ولكنه نصيب من الأنصاب الكبيرة جداً والتي كسب برونزها اللون الأخضر مع الأيام!

كل ما يعرفه الناس أنه لجماعة غزوا مجاهل البرازيل العمياء لوضع الحدود... العمياء أيضاً!

كان ذلك قبل قرنين. لاتعرف كيف دبت الصيحة لمثل هذا الكشف الذي لم يكن أحد يعرف أبعاده المميتة. معظم الذين تطوعوا للحملة كانوا من المغامرين. أشداء كانوا. أميين كانوا. ولكن كانت تدفعهم دوافع شتى نحو الهدف الذي ملأهم: الكشف عن حدود البرازيل. يشك الكثيرون في أنهم كانوا يعرفون شيئاً عن المخاطر التي سوف يواجهون ليصلوا إلى تلك الحدود المجهولة ويضعوها على الأرض. ولاعن الشقاء الأخرس الذي سوف يعانون. ولاعن المدة التي سوف يقضون في هذا الكشف.

ذهبوا وعاد بعضهم ولكن لم يكتب أحد منهم كلمة عن الكشف الذي حققوه. رواياتهم الفردية التي صارت مع الأيام أساطير على الألسن وأناشيد للغناء الشعبي! هي الوحيدة الباقية

بلى! ظهرت بعض الكتب التي تزعم أنها مذكرات للمغامرة الفريدة. ولكنها ظلت تقف على الحدود بين الصدق والكذب، ولست تدري أين يبدأ هذا وأين ينتهي ذاك؟ وأين تكمن الأسطورة أو يتحقق التاريخ؟... كل ما

استطاع الناس أن يتبينوه هو الأحاديث عن الغابات ورعيها، والأنهار ومهواها، والوحش والطير والأمراض. وكلها وقائع جغرافية قائمة. أما التاريخ الثابت للبشر فقلما اهتم به أحد... ولم يَرْوِهِ في الأصل أحد! وإن ظل أصحابه مثالاً مبهماً للشجاعة والمغامرة والوطنية... ولعل المشاعر الوطنية الأولى في البرازيل بدأت بهم وبأمثالهم...

كيف ذلك؟ القصة قديمة ترجع إلى أوائل أيام الكشف لأمريكا الجنوبية. فمنذ أن عُرف وجود هذه الغارة تسارعت الأشرعة المتجهة غرباً إليها من أوروبا. المحيط الأطلسي الذي ظل رعباً وحرماً هادئاً عشرات القرون وجد فجأة على ظهره أحمالاً من البشر يملؤها الطمع والأمال... وبأيديها البنادق! في سنة ١٤٩٣ السنة التالية لاكتشاف أمريكا قامت الخصومة بين الشعبين اللذين تكالبا عليها: الاسبان والبرتغال. ولجأ الطرفان إلى البابا لتحكيمه في الأمر فرسم على الخارطة خطاً مستقيماً وهمياً يمتد من القطب الشمالي إلى القطب الجنوبي ويمر بنقطة تبعد مائة فرسخ غربي جزر آزور بحيث تكون الأرض من غربه مجالاً لكشوف إسبانيا والأرض من شرقه مجالاً لكشوف البرتغال. وزحزح هذا الخط نحو الغرب قليلاً في السنة التالية لصالح البرتغال... وكان هذا الخط نوعاً من القدر... لقد أعطى البرازيل وحدها للبرتغاليين في حين أعطى الاسبان بقية الدول الاسبانية الاحدى والعشرين:

على أن هذا الخط الوهمي لم ينزل أبداً إلى الأرض. ظل وهمياً. صحيح أنه أوجد قارة البرازيل الضخمة ولكنه لم يصبح واقعاً على تراب الأرض أبداً، في معظم أجزائه. ماتزال الحدود البرازيلية الغربية مجرد نقاط على الخرائط حتى اليوم. حالت قروناً دون ذلك مهاوي جبال الآند الغربية وكثافة الغابة الأمازونية اللانهائية. فالحدود بين البرازيل من جهة وكان من فنزويلا وكولومبيا والإكوادور والبيرو من جهة أخرى معلقة في الهواء... ولاتزال تحاول أن تنزل بهذا الخط المسمى **Ligna de Demacation** إلى صخور الأرض. كثيرون بالطبع حاولوا ذلك. لعل من مشهوري الآواخر منهم المارشال روندون الذي

خطط الكثير من المواقع. لكن من ذا الذي يعرف مدى ما يلق الموغل في غابات الموت البرازيلية؟ وما الذي يلق؟ وكم من الضحايا افترست تلك الحدود

إنها الغابات الأمازونية التي ما تزال تسمى جهنم الخضراء تلك الغابات. مدى من الشجر تبلغ مساحته نصف القارة الأوروبية تتوغل فيه الأنهار كالشرايين المحمومة بكل مكان. إنها أكبر مساحة غابية شاسعة في العالم. يشقها في جلال مدمر نهر الأمازون الهائل أعظمُ أنهار العالم، ماءً وقدرةً... وخطراً عرضه حين يقترب من مصبه يبلغ ٣٠٠كم. الحقائق الأبدية في هذه الغابة هي الأنهار العظيمة تجتمع في الأمازون والأشجار التي ترتفع ٥٠متراً وتحتها الأدغال... ثم أصناف الوحش والهوام والزواحف. ودنيا الحشرات لاأقسى ولاأرهب.

حملة الأعلام **los Bandeiros** اتجهوا من سان باولو إلى الشمال الغربي؟ واجهتهم أولاً أرض الفراغ. إنهم يسمونها اليمبا. عالم من الحشائش لاوجهة له ولاعلامات ولاحدود. إن لانهائية الفراغ. لم تعمل سكاكينهم ولا المقاطف فيه. ولكن المناخ المداري واللامحدود كانا يدخلان الحزن على الرؤوس المتعبة التي يفكر بعضها بمدن الذهب المفاجئة. وبعضها بما ترك وراءه الأهل والولد. ولكن لاشيء سوى الحشرات وتشقق الأرض وعضة الملاريا والتوترات الحادة بين حملة الأعلام.

حين وصلوا أطراف الغابة الأمازونية نمت أمامهم بالتدريج محيطات الأشجار يقعي بعضها كالأفعوان الضخم على جذور ملتفة. وبعض يذهب عالياً في السماء عشرات الأمتار. لقد دخلوا في ليل الغابة حيث لاتنفذ الشمس من بين الشجر إلا بسلطان! السكاكين والبلطات والمقاطف هي التي كانت تشق لهم الدروب وسط الأدغال. كل أساطير وحقائق هذه القصة إنما صيغت هناك...

الغابة في النهار سكون كسول ثقيل، وصمت يصل حد الرعب. وتتحول العتمة إلى سائل هلامي يسد منافذ الهواء ويرفع التوتر حتى الجنون. وفي الليل تدب الحياة الوحشية في النبات الكثيف المتلبد وفي أشجار النخيل الاستوائي

وشجر الأنبوب والبلوط وأنواع الجذوع ذات الخشب اللين واللبلاب ومن النباتات الأرضية السميكة والأزهار القاتلة. كل ثروة النبات الهمجية هناك. وتأخذ الحيوانات الكبيرة في التجول. وتسمع صراخ الفرائس مختلطة بأصوات النمر الأمريكي والقطط المفترسة التي تجوب الأدغال. ولغط القردة العواءة الذي يهز الظلام ويختلط صراخ ببغاء الماكو مع النسر الأسود، وتحس حولك بهسيس الأفعى القماطة أو الأناكوندا حية الماء الضخمة أو الوطواط مصاص الدماء وعفريت الخرافات ويلوب البعوض والذباب العضاض ويصبح النمل بأنواعه سيد الأرض!...

لم يصل حاملو الأعلام إلى عمق الغابة. عبروا فقط خط تقسيم المياه إلى حوض نهر ماديرا الذي يجري باتجاه الشمال إلى الأمازون. ولم يصلوا الغابات التي سوف تستثمرها في القرن الماضي شركات المطاط زارعة على ضفاف الأنهر عملاءها للموت أو للنحل... أو لوحشية الهنود!... ولا وصلوا نهر نيغرو (النهر الأسود) الذي يبدو في سواد مائه كأنه ينبع من عين من الحبر! ولكنهم رجعوا بآلاف القصص... رجعوا؟ لم يرجع إلا أقل من النصف. الباقون ابتلعتهم الغابة إلى الأبد. الذين عادوا كانت أعينهم ملأى بالرعب... وملأى أيضاً بالبرازيل الحقيقية. برازيل الوحش والهوام والبدائية الأولى. لم تكن الحدود حيث ركزوا الأعلام، وإنما كانت وراءها بكثير إلى الغرب. ولكنهم على أي حال أمنوا مستقبل البرازيل كدولة واحدة ومشوا بحدودها أبعد فأبعد في الغابة العذراء وكان هذا أعظم خدماتهم. قبل أن يتحولوا تدريجياً إلى أساطير شعبية!

وبعد كثير من الوقت تجمدوا في نصب تذكاري يسأل السائل أمامه: من هم هؤلاء البانديراتس؟ من غزوا؟ وأين غزوا؟

بيتياس... الكذوب!

ماكان كذوباً أبداً هذا العالم المكتشف بيتياس. ومع ذلك فقد عرف في التاريخ باسم بيتياس الكذوب أو الفشار! لم يصدقه أحد من بني عصره ما كان يرويه عن اكتشافاته. كانوا يضحكون منه من وراء ظهره ولقبوه بالكذوب وكان صادقاً في كل ما قال... لكن لقبه انسحب حتى على مدينته مارسيليا إلى اليوم!

في ثلاث ساعات، بالطائرة اليوم، تستطيع التحقق من كل كلمة قالها في قصة اكتشافاته، إن الأمر لايتجاوز رحلة اكتشاف قام بها من مرسيليا إلى أطراف جزيرة آيلاندا في شمالي الجزيرة البريطانية ومنها إلى شواطىء النرويج الجنوبية...ولكنهاكلفته بجانب سمعته ١٦٣ يوماً من الملاحة البحرية!...

كان ذلك قبل الميلاد بـ ٣٣٠سنة أي في الفترة التي كان فيها الاسكندر المقدوني يقوم بفتوحاته في المشرق... البحر الأبيض المتوسط الذي كان كله، في ذلك الوقت للفينيقيين، سادة البحار والملاحة، فقد مركزه الشرقي في صور الفينيقية التي احتلها الاسكندر فتجمعت كل قوى فينيقيا في قرطاجة، عند تونس. بقي الفينيقيون وهم التجار النشيطون يسيطرون تماماً على الحوض الغربي للبحر المتوسط ويسدون بابه المطل على المحيط الأطلسي (والذي ندعوه اليوم بجبل طارق وكان يدعى من قبل بأعمدة هرقل) فلاتمر به إلا سفنهم لجلب البضاعات من شمال أوروبا... وبخاصة القصدير والعنبر الغاليان جداً...

منافسوهم في الملاحة من الاغريق كان مركزهم في مارسيليا، بعد اليونان، ولكنهم كانوا أعجز بكثير من الوقوف للأسطول التجاري الفينيقي، ملك البحر! حاولوا المرور إلى شمال أوروبا عن طريق مضيق الدردنيل والبوسفور والبحر الأسود فلم يهتدوا إلى طريق... فظلوا ينظرون إلى عبور جبل طارق... ولكن أنى لهم بذلك؟ كانوا يتصورون أن البر الأوروبي كله جزيرة ؤلابد من وجود

ممر بحري يصل ما بين بحارها الشمالية والبحر الأسود ولكن من ذا الذي يعرف هذا الممر؟ وكيف السبيل إلى العنبر والقصدير بسعر رخيص؟ وجلبه في البر مكلف جداً عدا أنه كثير المخاطر...

مجلس المدينة (التيموك) تذكر أن عالماً يدعى بيتياس من محبي الفلك والرياضيات كان قد طلب الإذن بعبور جبل طارق على مسؤوليته وحسابه ليدرس ظاهرة المد والجزر في الشمال ويتحقق من أحاديث الملاحين عن شمس نصف الليل... فاستدعى التيموك هذا الرجل يفاوضه. كذبوا عليه وتملقوه وعرضوا تمويل رحلته على أن يتبع تعليماتهم!... كانوا في الواقع يعدون رحلتين: إحداهما نحو الشمال الأوروبي بقيادة بيتياس والثانية إلى الشواطىء الأفريقية الأطلسية لجلب العاج والذهب وكشف مصادرها هناك... وزعموا أن هذه السفينة الثانية إنما أعدت لتغطية تكاليف الأولى...

سارت السفينتان من مارسيليا سنة ٣٣٠ق.م. بالأشرعة والمجاديف. الملاحون الثمانية والعشرون الذين كانوا مع بيتياس اختيروا من الأحرار وذهبوا على حسابهم الخاص. المصلحة التجارية تقضي بذلك. ويتكلم بعضهم اللغة الكلتية الشائعة يومذاك في الشمال الأوروبي... لازمت السفينتان ساحل اسبانيا الشرقي. فالقرطاجيون لايغفرون أبداً أي تسلل اغريقي. توقفتا في جميع المرافىء تتنسمان أخبار المضيق والرقابة المزدوجة عليه من الجانبين من طنجة ومن قادس...

صار بيتياس أولاً يبحر ليلاً، بعكس عادة الاغريق، معتمداً على معرفته بالنجوم ثم طلى السفينة بالطلاء الأسود لتزداد خفاء رغم اعتراض رفاق الرحلة الذين خافوا غضب الآلهة من ذلك وتطيروا من أن تصبح السفينة قطعة من الليل ثم دهن الأشرعة نفسها... فغدت السفينة غراباً أسود... وزاد التطير في الملاحين. تلك كانت علامة السفن التي تحمل الموتى من مرسيليا... لكن بيتياس لم يأبه! بعد اثني عشر يوماً وصل إلى جبل طارق! هنا العقدة الحرجة: كيف يخدع القرطاجيين ويمر؟ أمام طنجة، قام بجر السفينة الأخرى كما لو

كانت غنيمة يجرها إلى قادس! لم تنطلِ الحيلة ولحقت بها سفينة قرطاجية وقاربتها تسأل. وعمد بيتياس إلى الحيلة الحربية. ألقى حبالاً مثقلة بقطع الرصاص على مجاديف القرطاجيين فشلتها. وتراشق الطرفان بالأسهم وقتل القائد القرطاجي وإذا بالعبيد المجدفين على السفينة القرطاجية يطلقون صيحات الفرح. لقد كانوا عبيداً يونانيين فطلب إليهم بيتياس العودة إلى مارسيليا لإبلاغها بالخبر السار: تم اجتياز أعمدة هرقل!

بعد أسبوعين في عرض بحر الظلمات: المحيط الأطلسي افترقت عن بيتياس السفينة الأخرى لتذهب في مهمتها إلى الجنوب وتابع بسفينته عن قرب السواحل الإسبانية إلى الشمال. وأصاب الرعب طاقم السفينة حين غاب البر عنهم وهم يقطعون خليج غسقونياً عرضاً إلى بلدة نانت، وهناك فتح الألواح المعطاة له بالتعليمات السرية ليجد أن التيموك خدعه وأرسله في مهمة تجارية لاعلمية... خاب أمله كل الخيبة إذ كان عليه أن يعود والسفينة ملأى بالقصدير والعنبر ولكنه تابع الإبحار مع ذلك نحو الشمال.

في بريتونيا وجد الحاكم ملكة فتعجب من ذلك. وفي الليل أيقظه البحارة من النوم: البحر ينسحب من تحت السفينة: إنه الجزر. كان الفينيقيون يعتبرون ذلك من أسرارهم الحربية... وهي في البحر المتوسط ظاهرة محدودة. وثبت بيتياس السفينة على مجاديفها فأصبحت على البر... ونصحوه إن كان يفتش عن العنبر أن يتجه شمالاً إلى رأس كورنوي... كان هذا يعني أن عليه أن يجتاز بحر المانش في أقصى غربه وأوسع عرضه ولكنهم حدثوه عن الأمر العجيب: إن الشمس التي يراها تغيب من الغرب إنما تنام ليلاً في الشمال عند بلدة تول إل.

وصل بريطانيا عند رأس كورنوي وأخبره الملك أن بلاده مثلثة الشكل، أكبر من صقلية وأن أحد رؤوسها يتجه إلى الشمال ونصحه أن يقطعها من جنوبها ثم يتجه إلى الشمال. هناك لأول مرة سمع قصة الخلاف بين شعوب النبيذ وشعوب الجعة كانوا يغرونه في كل مكان بأخذ الجعة مقابل النبيذ الذي

كان يحمله رجاله... لكن هؤلاء الرجال رفضوا لم يعجبهم طعم الجعة، حين دارت السفينة واتجهت إلى الشمال عثرت بمصب نهر التاميز وعجب بيتياس من غزارته كالبحر وقصره الشديد الذي لم يأخذ منه إلا فترة قصيرة من الإبحار.

إلى الشمال التقى بيتياس بشعب يطلي نفسه بالزرقة سألوه عن الغوين وألحوا ولم يفهم أنهم إنما يسألون عن النبيذ! في الشمال الأقصى عند سواحل اسكوتلنده شهد الحيتان الضخمة بكثرة. إنها وحوش حقيقية يفترس بعضها بعضاً في سرور! في نهاية شهر مايس شهد ما لم يكن قد شهد من قبل: نهار الأربع والعشرين ساعة. وقالوا له: إن الشمس هنا لاتغيب بل تنام في الأفق عند تول إل. واندفع إلى الشمال ليشهد جزراً تتدفق منها البراكين. حممها تلون البحار بلون الغسق. وطاف بعد ذلك بجزيرة ايسلاندا من الغرب حتى وصل منطقة غريبة لاهي بالأرض ولاالماء ولكنها ضباب في ضباب وثلج ذائب وصقيع يقطع الأنوف وخليط هلامي، لزج مما لست تدري من نبات البحر وحيوانه لم يوافق بيتياس رجاله في العودة إلا حين اصطدمت سفينته بجزيرة من جليد... وعاد بدليل مع الاسكاندينافيين أوصله إلى جنوب النرويج. وعجب هناك من عبور السفينة بين الجبال وإيغالها فيها. إنها الفيوردات النرويجية...

أقبل بيتياس يبحث ويبحث في هذه المنطقة من بحر البلطيق عن ممر يوصله إلى البحر الأسود.كان هذا هو المطلوب منه.ولكنه كان يبحث عبثاً. البر السلافي الواسع (الذي نسميه روسيا) كان يسد عليه كل السبل. دخل بعض الأنهار العريضة وعاد خائباً لكنه وجد العنبر في هذه البلاد برخص التراب فملأ السفينة منه. استبدله بالحصى الموجودة عليها وعاد وعبر مضيق سكاجراك بين الدانمرك والنرويج حتى مصب نهر السين وأرسل من هناك بعض رجاله ينبئ التيموك بأنه لاممر إلى البحر الأسود.

وعاد فتحمل بالقصدير من بريطانيا وسلك طريق العودة قرب الشواطىء حتى ممر جبل طارق. هناك استتر بالضباب الكثيف وأتم المسير إلى مرسيليا... لقد أخفقت رحلته وإن حملت العنبر والقصدير! لقد رخصت

أسعارها في البلد بسبب كثرة ما توفر منها.

أفجع ما لاقاه أن أهل بلده كذبوا كل ما رأى. حسبوه ينسج الأخيلة ويبيعها للناس وانتشر الهزء به وبرجاله الذين كانوا، عن جهل، يضخمون المشاهد. اسمه الذي يطلق اليوم على زقاق في مرسيليا من عدة بيوت لايعرف أحد أنه السبب في سمعة أهل مرسيليا إلى اليوم بكثرة الكذب والفشر...

سباق لاكتشاف... قارة!

القارة هي القطب الجنوبي! بلى! هذا القطب قارة متجمدة. وليس كالقطب الشمالي مجرد بحر داخلي وجليد يطفو فوق الماء. إنه القارة السادسة. كثيرون هم الذين غزوا أطرافها واحتجزوا لبلادهم قطعة من «الفطيرة» التي تمثلها. وثلاثة فقط هم الذين غزوها حتى الأعماق ووصلوا نقطة القطب... انكليزيان ونرويجي! ولست تدري لم اشتهر الانكليزي الذي فشل في أن يكون الأول في الوصول. وخفت اسم الآخر النرويجي الذي حقق النصر وكان الأول في قهر القطب! لعل النهاية الفاجعة للفاشلين الإنكليزيين هي التي صنعت لهما الأسطورة وهالة التقديس! أو لعلها الدعاية القومية التي أتقنتها الامبراطورية الانكليزية في عزها.

القصة تتعلق بالقائد البحري روبرت فالكون سكوت ورفيقه إرنست شيكلتون، والنرويجي أموندسن. الثلاثة تسابقوا للوصول إلى القطب. وفاز النرويجي! وكان الرهان امتلاك القارة القطبية بغرس العلم في القطب. ولكن. عدة أمم أخرى زحفت بعد ذلك وغرست أعلامها على الأطراف في تلك الصحراء البيضاء المتجمدة التي لم يدسها قدم إنسان قبل القرن العشرين لأن ثم إجماعاً على غناها بالمعادن والبترول المدخرة للأجيال القادمة!

كانت المبادرة في أول الأمر، في مطلع هذا القرن من سكوت الضابط البحري الانكليزي. فسكوت يحب بلاده ويؤمن بعظمة الامبراطورية التي كانت، في ذلك الوقت لاتغيب عنها الشمس وتطلب المزيد. ويريد هذا الضابط إضافة القارة الجنوبية إلى أملاكها الممتدة من كندا إلى أقصى نيوزيلانده عبوراً بجنوب افريقيا والخليج والهند واستراليا وما تيسر من افريقيا وآسيا. وسكوت من أصل نبيل ولولا ذلك ما أتيح له السلاح البحري الذي كان بدوره أنبل الأسلحة وحين أبحر سكوت سنة ١٩٠١ بسفينته ديسكوفري من لندن لم يكن

أحد من بحارته يعلم أين هم ذاهبون؟

تحركات الأسطول كانت دوماً تحاط بالسرية. كان مع سكوت مغامر بحار اسمه شيكلتون وطبيب هو ويلسون! كان على السفينة خمسين خروفاً حياً ومجموعة من الكلاب. الأولى لتوفير الطعام الطازج والثانية للجر... سكوت لم يغفل أدق الحاجات من أكياس النوم الشديدة الدفء إلى اللحم المجفف والملح!

سارت البعثة إلى جزر فوكلاند التي ثارت عليها الضجة والحرب منذ فترة قصيرة بين انكلترا والأرجنتين فهي موصولة الجزر بأطراف القارة المتجمدة. ولعل هذا كان أحد الأسباب في تمسك انكلترا بها وحربها من أجلها. واتجهت إلى الجنوب حتى خليج يسمونه ماك موردو. هناك أقاموا مخيمهم الأساسي.

كان الوقت في مطالع الشتاء عندنا فهو إذن مطالع الصيف هناك وليس ثم ليل. ولكنه الضباب الصقيعي. ومع أنه الصيف فالحرارة بين ـ ١٥ و ـ ٢٥ !.

قرر سكوت إقامة مراكز ومحطات للتموين ولكن رحمته بالكلاب التي جاء بها للجر (وكانوا يرحمون الكلاب ولايزالون أكثر من بني البشر) جعلته يقسم جر المؤن والمعدات بكميات قليلة مما ضاعف طول الرحلة أمامه مرتين وثلاثاً! بعد أربعة أشهر أصيب شيكلتون بفساد الدم... وهذا يعني أن الطعام رديء وسقطت أسنانه. وأحس بالآلام المبرحة ومع أنه أصر على المتابعة إلا أن سكوت وطبيب الرحلة قررا العودة إلى المخيم الأساسي. استرد صحته ولكنه عاد إلى انكلترا. وتابع سكوت بعض الرحلات الاستكشافية الأخرى قبل أن يعود بالبعثة من حيث جاءت... كانت محاولة فاشلة قررت بعدها الاميرالية البحرية الانكليزية عدم تكرارها... فهي التي كانت تمولها! وكان استقباله فاتراً والنقد له لاذعاً بحيث مات الأمل في صدره.

ارنسست شيكلتون الذي كان من البحرية التجارية الحرة لامن البحرية الملكية كان مغامراً حقيقياً وصحفياً أيضاً. ويريد بدوره إثبات وجوده كمجموعات الرجال الانكليز التي انبثت في القرن الماضي بكل مكان لتصنع مجد

الانتشار الانكليزي والامبراطورية! وقد سمع باستعدادات الدول الأخرى لغزو القطب الجنوبي ولاسيما فرنسا التي أرسلت أحد روادها في القطب الشمالي وهو شاركو ليقوم بالمهمة نفسها في الجنوب. كان قد غامر شيكلتون بالانتخابات ففشل. وعمل صحفياً ثم التحق ببعض الصناعيين الكبار. ونجح في إقناعه بتمويل بعثة إلى القطب لاكتشافه...

وثار سكوت الذي كان يعتبر هذا الاكتشاف من حقه لولا عناد الاميرالية. ومنع الطبيب ويلسون من مرافقة شيكلتون وأجبره على أن يقسم بعدم استعمال الطريق التي اتخذها سكوت من قبل. وذهبت البعثة فغابت سنة وشهرين... وعادت بدورها فاشلة. لم يراع إلا في البدء مجانبة طريق سكوت ثم عاد إلى الطريق نفسه واعترضته سلسلة جبال يرتفع بعضها ثلاثة آلاف متر ولكنه اجتازها من الممرات المرتفعة ألفي متر كل ما أثبته شيكلتون هو أن المتجمد الجنوبي يقوم على أرض متجمدة وليس على الماء وأن لاسبيل إليه إلا ببعثة من البحر. فالبحر تحته مغلق! وكان بين شيكلتون وهدفه مائتا كيلومتر حين ماتت خيول البوني التي جلبها معه للجر. وكان عليه وعلى رفاقه أن يجروا الزلاجات بأنفسهم وحمولة الواحدة منها ١٥٠كغ عائدين إلى سفينته النمرود ! في حين قامت هالة من المجد والشهرة حول اسمه.

سكوت كان أكثر الناس قلقاً لاستماع أخبار الرحلة. وحين عادت مخفقة ارتاح وزاد في ارتياحه أن الاميرالية البريطانية سمحت له بمعاودة المحاولة. التنافس الدولي دخله الكثيرون!

أعد سكوت رحلته بدقة واستفاد من مختلف التقنيات التي ظهرت بعد محاولته الأولى ولم يكن يشك في أنه المنتصر هذه المرة بعد أن استفاد أيضاً من تجربته الذاتية وتجارب غيره. وفيما كان يتخذ استعداداته يسمع أن أحد النرويجيين الذين غامروا في القطب الشمالي وابتكروا السفينة العوامة فوق الجليد يعد بدوره عدته للمسير إلى قطب الجنوب واسمه أموندسن ! إنه من سلالة الملاحين الفايكنغ وله خبرته الطويلة في الملاحة بالبحار الباردة. وبعد أن فشل

في الشمال كتم مشروعه الجنوبي وغادر النرويج نحو الجنوب... وليس إلا على الطريق حين علم سكوت بحركة منافسة أموندسن... ولكنه لم يعرها كبير اهتمام لخبرة الشمال غير الجنوب. وهو يعرف الكثير مما لايعرفه أموندسن عن الأرض التي يقصد! وهو واثق تماماً من أنه واصل قبله. كان مطمئناً...

فبراير سنة ١٩١١ نزل سكوت حيث كان نزل في المحاولة الأولى ومعه ١٧ رجلاً. إنها أرض يعرفها. أما أموندسن فنزل في الوقت نفسه في خليج الحيتان حيث نزل شيكلتون. كانت بعثته من أربعة رفاق. وقد زار سفينة سكوت قبل أن يبدأ السباق بين الطرفين. وفي الشتاء أي في أشهر يوليو ويونيو وأغسطس استراح أموندسن وعني بكلابه المائة التي جلبها معه. أما سكوت فأتعب نفسه ورفاقه في البحث عن بعض البيوض وفي بعض الأعمال الجانبية مما استهلك المؤن والجهد. وفي ايلول (سبتمبر) سنة ١٩١١ وكان البرد كالزمهرير يسفع الوجوه والأنوف. والعواصف تتوالى ضمن الضباب الكثيف تحرك أموندسن ولكنه اضطر إلى العودة وانتظر شهراً آخر ليعاود المسير. وصل منطقة الجبال وصعدها وفي النزول ترك الزحافات للكلاب تجرها ولم يكن على الرجال حمل شيء. وصلوا النقطة التي وصلها شيكلتون في ٧ ديسمبر. وبعد أسبوع كان أموندسن ورفاقه فوق نقطة القطب. غرس العلم النرويجي ونصب خيمة صغيرة حوله وكتب رسالة إلى سكوت يتمنى له حسن الوفادة... وعادا على الطريق صار يقتل من كلابه كلها الضعفاء. وترك الآخرين. قاسى أعنف الصعوبات ولكنه كان بعد خمسين يوماً في معسكره الأول!

سكوت هو الذي عانى الفاجعة أو الفواجع المتتالية حقل الجليد الأخير الذي قطعه أموندسن بكلابه في أربعة وعشرين يوماً قطعه سكوت ببغاله في ٣٧. وصل أموندسن إلى القطب في ٥٩ يوماً في حين وصل سكوت في ثمانين. وحين أطل على المنطقة وجد من بعيد نقطة تلوح في البياض ما لبث أن تبين أنها العلم النرويجي! وصل إليه وطواه وهو في منتهى اليأس ونصب العلم الانكليزي بدلاً منه... وفي طريق العودة مرض أحد مرافقيه ثم جن. ثم

نفذت محروقاته. ثم فقد الطبيب ويلسون بصره فكانوا يقودونه في الثلوج ثم انتحر بعض المرافقين خرج من الثلج ولم يعد... وأخيراً آمن باقي البعثة بالموت وهم على بعد ٢٥ كيلو متراً من مخزن المؤن... وماتوا. لم تغرق أماكن جثثهم إلا في عدة بعثات بعد عدة أشهر.

صحيح أن أموندسن عاد مكللاً بالغار. ولكنه ذهب سنة ١٩٢٨ في البحث عن بعثة فرنسية فغاب في الضباب وأما شيكلتون فقد عاد فطاف حول قارة القطب ومات سنة ١٩٢٢ على سفينة متجهة أيضاً وأيضاً إلى أقصى الجنوب. ولكن الذي بقي اسمه وموته الفاجع هو سكوت. وأما قارة القطب التي احترق من أجلها هؤلاء فإن مؤتمراً عقد في لندن سنة ١٩٧٧ فتقاسمها المؤتمرون بعد أن تبين أنها تحوي مع كل معادنها وما فيها أكثر من نصف المياه العذبة في العالم !! تقاسموها أرضاً للاستعمار والاستثمار !

كشف للناس عالمين... ولم يقل مرة واحدة: أنا فعلت!

المجهول دوماً يتلفع بالأساطير لدى الناس. لايطيقونه بدون الأساطير. كما لو كان يتحداهم ويمد لهم لسانه. وهذه الأرض التي نحن عليها كانت، حتى ما قبل خمسة قرون تحيطها الأساطير. حتى المناطق التي نعرفها بعض المعرفة كانت تقبع ما بين الحقيقة والخيال. الهند كان العرب يعرفونها ويتعاملون معها قروناً قبل الاسلام. ويعرفون ماوراءها حتى الصين. ومع ذلك فما كتبوه عنها يظل يقطف من الحقيقة قبضة ومن الخيال أخرى... وبين هذا وذاك لم يكتب العرب اكتشافاتهم في تلك البلاد في نسق واحد كالرواية المتكاملة. ولكنهم ألقوا عنها جميع الفضول فأضحت قصصاً شتى. موضوعها هناك في البلاد النائية، وأهميتها في مفارقتها أو غرائبها عما ألف الناس. إنها مجموعة صور مسكونة لما رأوا وسمعوا، كما في ألف ليلة. وعليك أنت أن تربط بعضها في بعض لتبني الصورة العامة التي تريد... لكنها على أي حال أول القصص التي عرفتنا وعرفت العالم على دنيا البحار الشرقية ومعابدها المجنحة وكتابتها العمودية وأحمال التجارات تزحف تحت قبعات القش، والأرجل الغارقة حتى الركب في زرع الرز... أو الزاحفة في ظلال شجر الفلفل والدارسين والمفعمة حتى الاختناق بالبخور والصندل!... وريا التوابل!

من التجار الذين عادوا وعيونهم ملأى بالصور، ذلك الرجل الذي لانعرف عنه إلا أن اسمه سليمان...وأنه أحد التجار في القرن الثالث الهجري. سافر إلى الصين والهند مرة بعد مرة للتجارة. لم يكن أديباً ولاشاعراً ولا قصد إلى ادعاء الكشف. ولكنه على ما يبدو كتب حوالي سنة ٢٣٧ لإخوانه وللتجار «أخبار الصين والهند» كما عرفها بنفسه. كان يبحر من سيراف، مدينة التجارة الأولى يومئذ على الخليج العربي إلى ساحل الملبار في الهند وجزيرة سرنديب

(سيلان) إلى كله على ساحل الملايو الغربي حتى خانفو (كانتون) في الصين!...
إنها مسيرة ستة أشهر في البحر بين السماء والماء... وهزيم العواصف وكان يلبث هناك ستة أشهر ثم يعود في ستة أشهر... في أيام سليمان كانت هذه الرحلة مغامرة كبرى. وكل ما يقال عنها كشف يتلقفه أهل التجارة والبحار بالشوق وطلب المزيد.. فسليمان إنما كان يتحدث فيه عن طريق التجارة العالمي الوحيد في البحر بين سيراف، مرفأ العالم على الخليج العربي، وبين خانفو مدينة الخيال والأسطورة على الطرف الأقصى من الأرض.

يتحدث سليمان التاجر عن البحر الذي يقع بين الهند والسند وبلاد يأجوج ومأجوج وجبل قاف وسرنديب (ويقصد من كل ذلك المحيط الهندي) أن فيه سمكاً ربما ظهر ونبت على ظهره الحشيش والصدف وربما أرسى عليه أصحاب المراكب يقدرون أنه جزيرة. فإذا فطنوا أقلعوا من عنده وربما نشر هذا السمك أحد جناحيه الذي في صلبه فيكون مثل الشراع. وربما رفع رأسه عن الماء فتراه كالشيء العظيم. وربما نفخ الماء من فيه فيكون كالمنارة العظيمة. فإذا سكن البحر اجتمع السمك فحواه بذنبه ثم يفتح فمه فيرى السمك في جوفه يغيض كأنه يغيض في بئر. والمراكب التي تكون في البحر تخافه فهم يضربون في الليل بنواقيس مثل نواقيس النصارى مخافة أن تتكىء على المركب فتغرقه...»

أليس يتكلم سليمان عن الحيتان؟

ويذكر سليمان أن بين بحر الهند وبحر لاروى جزائر كثيرة يقال إنها ألف وتسعمائة جزيرة وهي تفرق ما بين البحرين. وهذه الجزائر تملكها امرأة. ويقع في هذه الجزائر عنبر عظيم القدر فتقع القطعة مثل البيت ونحوه وهذا ينبت في قعر البحر نباتاً. فإذا اشتد هيجان البحر قذفه من قعره مثل الفطر والكمأة... وهذه الجزائر عامرة بنخل النارجيل (جوز الهند) وبعد ما بين الجزيرة والأخرى فرسخان وثلاثة وأربعة وكلها عامرة بالناس والنارجيل.

ومالهم الودع وهذه الملكة تدخر الودع في خزائنها ويقال إن أهل هذه الجزائر لايكون أصنع منهم حتى إنهم يعملون القميص مفروغاً منه نسجاً

بالكمين والدخريصين (ويعني قماش ما تحت الابط) قطعة واحدة ويبنون السفن ويعملون سائر الأعمال على هذا النسق من الصنعة. والودع يأتيهم على وجه الماء وفيه روح فتؤخذ سعفة النارجيل فتطرح على وجه الماء فيتعلق فيها الودع... «أليست جزائر المالديف هذه التي يعنيها سليمان»؟

إنه يضيف وآخر هذه الجزائر سرنديب وهي رأس الجزائر كلها وبجانبها مغاص اللؤلؤ وبحرها كله حولها. وفي أرضها جبل يدعى الرهون وعليه هبط آدم عليه السلام. وقدمه في صفا رأس هذا الجبل منغمسة في الحجر. قدم واحدة ويقال إنها في نحو من سبعين ذراعاً. وكانت خطوته الثانية في البحر.

وحول هذا الجبل معدن (أي منجم) الجوهر من الياقوت الأحمر والأصفر والاسمانجوني. وفي هذه الجزيرة ملكان. وهي جزيرة عظيمة عريضة فيها العود (البخور) وفي بحرها اللؤلؤ والشنك وهو هذا البوق الذي ينفخ فيه مما يذخرونه...

ويتحدث سليمان بعد ذلك عن جزر أخرى فيها معادن (أي مناجم) الذهب، أو فيها الكافور الجيد.

وأخرى إذا أراد أحد من سكانها أن يتزوج لم يزوجوه إلا بقحف رأس رجل من أعدائهم فإذا قتل اثنين زوج اثنتين وكذلك إذا قتل خمسين زوج خمسين امرأة بخمسين قحفاً. كما تحدث عن جزر اندامان وسكانها من السود مغلغلي الشعور، مناكير الوجوه والأعين يأكلون البشر. وعن جزائر لنغبالوس وخلقها عراة، الرجال منهم والنساء غير أن على عورة المرأة ورقاً من ورق الشجر وزوارقهم من جذوع الشجر المنقور نقراً. ثم ينتقل سليمان فيتحدث عن الرياح الموسمية وأمطارها قائلاً: وربما رؤي في هذا البحر سحاب أبيض يظل المراكب فيشرع من لسان طويل رقيق حتى يلصق ذلك اللسان بماء البحر فيغلي له ماء البحر مثل الزوبعة فإذا أدركت الزوبعة المركب ابتلعته. ثم يرتفع ذلك السحاب فيمطر مطراً فيه قذى البحر فلا أدري أيستقي السحاب من البحر أم كيف هذا؟ وقد يكسر المراكب ويقذف السمك الميت الكبار والعظام

وربما قذف الصخور والجبال كما يقذف القوس السهم...

وتتابع حديث سليمان التاجر لتراه يتحدث عن الطرق البحرية ومسافاتها وأماكن الأخطار فيها ومواقع المياه العذبة وعن جبل النار، قرب الزابج، الذي لايقدر أحد على الدنو منه. يظهر منه بالنهار دخان وبالليل لهب نار ويخرج من أسفله عين باردة عذبة وعين حارة عذبة! كما يتحدث في الغرائب عن الكركدن هذا الحيوان الضخم الذي له في مقدم جبهته قرن واحد وفي القرن علامة صور كخلقة الانسان. القرن كله أسود والصورة بيضاء في وسطه. وهو دون الفيل في الخلقة وإلى السواد ما هو. ويشبه الجاموس. قوى ليس كقوته شيء بين الحيوان. وليس له مفصل في ركبه ولافي يده وهو من لدن رجله إلى ابطه قطعة واحدة. يجتر كما تجتر البقر والإبل ولحمه حلال قد أكلناه. وهو في هذه المملكة في غياضهم وفي سائر بلاد الهند غير أن قرون هذا أجود. فربما كان في القرن صورة رجل وصورة طاووس وصورة سمكة وسائر الصور وأهل الصين يتخذون منها المناطق وتبلغ المنطقة ألفي دينار وثلاثة وأكثر على قدر حسن الصورة... وهذا كله يشترى بالودع وهو عين البلاد (أي النقود) ...

والكتاب صغير أشبه بأن يكون رسالة. كأنما كتب ليكون دليلاً للتجار لكنه مفعم حتى الفيض يسيل من الملاحظات الهامة وليس ما فات إلا أهون ما فيه. ما كتبه عن ملوك الجبال العصية البيضاء وعن طريقه حكم الصين يدخلك في عالم آخر لترى جيوش الهند وعاداتهم حين يموت الملك يخرجونه بكناسة القصر على رأسه ليعني أن الموت قاهر، وعن البيوت التي يتوارث فيها القضاء، أو الأخرى التي تتوارث الكتابة. ثم عن الصين ولبسهم الحرير طبقات حتى في الشتاء. وعن مدنهم المائتين. وعن مشاعية الدواء الذي كتبوا أوصافه على حجر كبير نصبوه في المدينة. وعن عدالتهم التي نصبوا لها حبالاً يشدها أي فرد فتقرع لدى الحاكم ليسمع مظلمته. والبوق الضخم الطويل طول ٣-٤ أذرع والذي ينفخ فيه لبيان التوقيت وعن المعادن الثمينة وعن الموتى الذين يحتجزهم الصينيون سنة في بيوتهم قبل الدفن ويقدمون لهم الطعام. وعن العقوبات

وطرق التحقيق في الجريمة التي ذكر أنها في الهند غريبة إذ يوضع في يد المتهم بعض من أوراق الشجر ويوضع فوق الحديد المحمى فيذهب به ويجيء فإن لم يحرقه كان) بريئاً وعوقب المدعي بمن من الذهب أو يسقط خاتم حديدي في الماء المغلي فإن أخرجه المتهم دون تأثر لم تثبت إدانته. ويتكاتف المقارنات الهامة في نهاية الكتاب الصغير في المقارنة ما بين الصين والهند مما كان يمكن أن يتسع له كتاب كبير... لولا أنها كتب كتقرير شديد الإيجاز.

عوالم وانتهت بغرائبها. لم يبق منها إلا ما يتركه بقايا الوشم في ظاهر اليد ؟

أما صاحب الكتاب المجهول فضاع حتى اسمه. لم يكن له من التبجح ما يدعي معه أنه كشف للناس عالمين!

أهو كشف... أم خيال؟

روسيا والبلاد الاسكندنافية هذه المناطق القائمة بين أوروبا وآسيا من جهة وبين البحار الحرة للحضارة وبحار التجمد والصقيع من جهة أخرى، كانت حتى ما قبل عدة قرون مجاهل مرعبة. غاباتها السوداء تحت الغطاء الجمدي الأبيض والضباب، مناطق مهجورة للحزن والموت وبعض الوحش... ولبعض من الآدميين الذين لم يكونوا أفضل حالاً من الوحش! ومن ذا الذي يجرؤ على اقتحام جهنم البرد والصقيع والوحوش البشرية؟

مع ذلك فقد فعلها عربي نعرفه باسم أحمد بن فضلان! حين عاد أخذ تقريره الذي قدمه للخليفة على أنه ضرب من الخيال... وظل كذلك حتى ما قبل قرن حين اكتشف أهل تلك المناطق أنه الجزء المجهول من تاريخهم الأول!

قبل ابن فضلان بقليل من السنوات، أيام الخليفة الواثق بن المعتصم، نفذ إلى عالم الصقيع والزمهرير، بأمر الخليفة نفسه، رجل نعرفه باسم سلام الترجمان. قالوا إن الخليفة رأى في المنام أن السد الذي بناه الاسكندر المقدوني دون بلاد يأجوج ومأجوج قد فتح فبعث من يستطلع له الخبر. وطاف الرجل من خلال أرمينية وبلاد الكرج أرض الخزر الشمالية ثم اتجه شرقاً إلى شمال بحر قزوين ثم إلى بحيرة بلكاش وممر زنجاريا شمال التيبت ولعله وصل سور الصين المشهور ثم عاد يقدم تقريره للخليفة...

وقبل سلام الترجمان، في أيام هرون الرشيد قام تميم بن بحر المطوعي بجولة في أراضي الغز الأتراك ووصف الطريق البري إلى الصين وقبائل الترك ولكنه بقي على حدود منطقة الصقيع! وكانت الرحلتان الكشفيتان كالمقدمة لرحلة ابن فضلان نحو الشمال المتجمد وكشفه الذي وصل به إلى أرض السويد... وأراه صنوف الرعب فيها!... وصقيع الأطراف والعيون!

لم يكـن ابن فضـلان رحـالة ولا كان يغريـه الكشـف الجغـرافي وغـرائـب الأقوام. مجرد عالم بالدين وبالله ولكن الخليفـة المقتدر اختاره ليرئس بعثة تفقـه ملك الصقالبة بالدين الاسلامي. حين بعث هذا الملك يطلب هذه البعثة لتبنى له جامعاً وتنصب منبراً وليقيم بينه وبين اليهود الخزر حصناً في جنوب بلاده يقيه شر عدوانهم الذي استشرى! هؤلاء اليهود هم اليهود الاشكنازيم (أو السكناج) الذي صنعوا ـ ومـايزالـون يصنعـون ـ النكبـة الـصهيـونيـة الـتي نعـرف... كانـوا يستذلون الروس الصقالبـة المسلمين ويفرضون عليهم الإتاوات وقد يتزوجون بناتهم غصباً...

مملكـة الصقـالبـة كانت في أعـالي حـوض نهر الفـولغـا. وعـاصمـتهـا عـلى موازاة موسكو لكن... لا البعثة المؤلفة من أربعة أشخاص عدا الدليـل، رسـول الصقالبة وبعض الأتباع، ولا ابن فضلان نفسه كانوا يعلمون كم تبعد في الشمال تلك الأرض التي كانت ترتع فيها الأساطير يومذاك وتخفق الأشباح الضبابية! ولايعلمون شيئاً من لغاتها ولا ما قد تكتشف.

خرجت الرحلة في صفر من سنة ٣٠٩ (يونيو سنة ٩٢١) فلم تصل إلا في المحرم سنة ٣١٠.

قضـت في الطـريـق مـن بغـداد إلى قـرب مـوسكـو أحـد عـشر شهـراً في الذهاب ثم قضت ثلاث سنوات حتى عادت.

الرحلة التي تقضيها الآن في يوم أو في بعض يوم لقي فيها ابن فضلان الأهوال وأصناف الأحداث حتى تمت!

طريقـه صعد أولاً مـن شمال شرقي العراق. عبر اقليم الجبال وهمذان إلى الري ثم عبر نهر جيحون حتى وصل بخارى فيا وراء النهر (بالتركستان)... هذا الطـريـق في قسمـه الأول آهـل مطـروق يعـبر أجمـل منـاطـق ايران جبالاً وسهولاً ونهراً... لم يجد فيه ابن فضلان رعباً إلا حين طوق قطاع الطريق القافلـة التي كان فيها قرب نيسابور! فاضطر للتنكر مع بعثته في زي التجار المساكين.

لم تبدأ متاعب ابن فضلان إلا حين داهمه الشتاء ولما يزل في الجرجانية

من أرض خوارزم. هناك فتح عليه باب جهنم الأخرى من البرد والزمهرير! عواصف قطبية تصفع الوجوه والآذان.وتجعلها جمداً. ريح من الثلج ترجف الأقدام والركب. وقد تجمد نهر جيحون العظيم من أوله إلى آخره وكان سمك الجمد سبعة عشر شبراً وكانت الخيل والبغال والحمير والعجل تجتاز عليه كما تجتاز على الطرق وهو ثابت لايتخلخل. يقول ابن فضلان: «وقد بلغني أن رجلين ساقا اثني عشر جملاً ليحملا عليها حطباً من بعض الغياض ونسيا أن يأخذا معهما قداحة وخراقة وأنهما باتا بغير نار فأصبحا والجمال موتى... ويطوف الانسان أكثر الشوارع والأسواق فلا يجد أحداً. ولقد كنت أخرج من الحمام فإذا دخلت إلى البيت نظرت إلى لحيتي وهي قطعة واحدة من الثلج حتى كنت أدنيها من النار... ولقد كنت أنام في بيت جوف بيت وفيه قبة لُبود تركية وأنا مدثر بالأكسية والفرى فربما التصق خدي على المخدة...!

ثلاثة أشهر انتظر ابن فضلان حتى انحل النهر وجرى. فاشترى الجمال وآلة السفر ومن جلود الجمال لعبور الأنهار ومن المؤونة لثلاثة أشهر. ومع أن أهل البلد نصحوه بالإكثار من الثياب وهولوا عليه أمر المخاطرة، ولبس وأصحابه ستة أنواع من الثياب بعضها فوق بعض فلا تظهر عيناه وفي أقدامه خفان لا واحد فما شاهدناه كان أضعاف ماوصف... حتى هرب منهم الأتباع واستأجروا دليلاً آخر للطريق!

مشى ابن فضلان والعواصف تلفه مع جماعته لفاً. والجمال تغوص إلى ركبها في الثلج. ثم أوغل الركب في برية قفر محدودة عشرة أيام لقي فيها من الضر والجهد والبرد الشديد وتواصل الثلوج ما جعل برد خوارزم عنده مثل أيام الصيف... وأشرف على تلف الأنفس... إلى أن وصل غابة من شجر الطاغ فأوقدوا واصطلوا ونشروا ثيابهم لتجف!...

وأفضى ابن فضلان بعد ذلك إلى قبائل من الترك يعرفون بالغز (وهي القبائل التي سوف تغزو البلاد الاسلامية بعد قرن باسم السلاجقة) وقد وصفهم بأنهم «بادية لهم بيوت شعر يحلون ويرتحلون في كل مكان وهم في شقاء.

لكنهم مع ذلك كالحمير الضالة لايدينون لله بدين ولايعبدون شيئاً بل يسمون كبراءهم أرباباً... وسمعتهم يقولون لا إله إلا الله محمد رسول الله تقرباً بهذا القول إلى من يجتازبهم من المسلمين لااعتقاداً بذلك، وإذا ظلم أحدهم أو جرى عليه مايكره رفع رأسه إلى السماء وقال: بيرتنكري بالتركية ويعني الله الواحد! لكنهم لايغتسلون ولايستتر نساؤهم في أبدانها عن أحد من الناس! على أن عقوبة الزنا أن يربط طرفا صاحبه إلى غصني شجرتين متجاورتين فينشق نصفين. وإذا اغتسل غريب عندهم غضبوا وقالوا: هذا يريد أن يسحرنا ويغرمونه مالاً.

واعترض القافلة في الطريق رجل وكانت في نحو ثلاثة آلاف دابة وخمسة آلاف رجل ورضي بتركها تمر بثوب وبعض الخبز وكف من الزبيب. واعترضهم آخر فأرضوه ببعض الخبز!

ويمضي ابن فضلان فيروي كيف يدفنون الميت في ملابسه كلها ويجعلون أمامه النبيذ. ثم يسقفون من حوله بيتاً ويجعلون عليه قبة ويعلقون عليها من رؤوس ماشيته قائلين: هذه دوابة يركبها إلى الجنة.

وهم ينتفون لحاهم ويرخون الاسبلة (أي الشارب) ويهدون الضيوف الغنم ولاينزعون ثيابهم عنهم حتى تتقطع. ومع أن ابن فضلان وأصحابه أهدوهم بعض الهدايا إلا إن ملكهم بعد أن تداول في شأنهم مع بعض أهله هم بقتلهم إلا أنه أطلقهم بعد سبعة أيام من الرعب!...

لم يسيروا طويلاً حتى واجهتهم أنهار بعد أنهار كانوا يجتازونها على زوارق من جلود الجمال. حتى وصلوا أرض البشناق وفيها ما هو أشبه بالبحر. فيعد منها ابن فضلان أربعة عشر نهراً حتى وصل بلاد الباشغرد الترك وهم يعتقدون باثني عشر رباً. ثم عبر سبعة أنهار أخرى حتى وصل أرض الصقالبة.

حيث استقبل وضربت له القباب وقدم الهدايا للملك. ودله على أمر الاسلام في عدد من الأمور. يقول ابن فضلان: ورأيت في بلاده من العجائب مالا أحصيه كثرة. رأى ـ فيما ذكر ـ قتال الجن من خلال الغيم الأحمر رجالاً ودواباً وسلاحاً كل مساء في السماء. ورأى التقاء المساء بالفجر في اليوم الواحد

واستطالة النهار حتى يستغرق اليوم كله فترة ثم استطالة الليل حتى تستغرق اليوم فترة أخرى. ورأى تبركهم بنباح الكلاب وكثرة الأفاعي في الغابات وشجر البندق والأرز وأدهانهم من السمك.

على أن أطرف ما كتب ابن فضلان في تقريره للخليفة ما كتبه عن الروس الذين لايستحون من شيء فإذا مات روسي جليل كما شهد ذلك. بنفسه جعلوه في بيت وسقفوا عليه عشرة أيام ليفرغوا من تقطيع ثيابه ومعرفة من تتبرع من جواريه بحرق نفسها معه فإذا كان يوم الحرق شربت الجارية وغنت وأحضرت إلى سفينته معدة كذلك. وأخرج الميت إليها مع النبيذ والفاكهة والمأكل وأجمل الثياب. ثم دفعوا الجارية بعد أن تودع أصحابها فخنقوها وقطعوا أضلاعها ثم أحرقوا الخشب تحت السفينة حتى يصبح رماداً تذروه الرياح!

إذا قرأت تفاصيل رحلة ابن فضلان في كتبها التي صدرت بأكثر من لغة حسبت نفسك في عالم آخر لا الناس فيهم ناسك ولا الجن!

أراد اكتشاف... الصين فوقع على كندا

قبل ست سنوات كانت مدينة سان مالوا في أقصى الشمال الغربي من فرنسا، على المحيط الأطلسي تحتفل بمرور ٤٥٠ عاماً على اكتشاف كندا. لماذا؟ لأن المكتشف جاك كارتيه كان منها كما كان منها شاتوبريان الرحالة الكاتب ولا بودونية وغيرهم. المدينة تحكي عن سفينة مسورة بسور عرضه سبعة أمتار ويصلها بالبر شريط طويل ضيق: أما أهلها فشديدو العناد، لا يكبح جماحهم ولا هم يلجمون. رغبات كالعواصف البحرية. ومن حولها الضباب القاتل وغضب المياه البحرية السوداء ومن فوقها الزبد والموج العنيف.

في هذه المدينة الصغيرة أمام المحيط. ولد كارتيه سنة اكتشاف أمريكا ونشأ نشأة فقر وتشرد يهزهزها الموج ونداء المغامرة والحلم بالآفاق السحرية والذهب، الصيادون والملاحون كانت هذه هي أحلامهم في تلك الفترة من عصر الاكتشافات. كل غرب أوروبا كانت تحلم بالصين والتوابل وعطش الذهب عبر البحر. فلماذا لايحلم البحارة؟

خرائط وهمية، أساطير وخيالات رافقت هذه الحمى التي التهبت في الرؤوس! وتطوع كارتيه رغم معارضة والديه في سفينة برتغالية وقضى عدة سنوات يجوب معها المحيط، وتزوج فتاة جميلة غنية. وكبر في جبينه الحلم: الصين فاشترى سفينة ليبحر بها إلى الأرض الجديدة!

فرانسوا الأول كان ملك فرنسا في ذلك الحين . وتحت ضغط الناس والحاجة أرسل بعثة بحرية إلى هذه الأرض لعلها تخترقها بالقوة إلى الهند فكانت كارثة!... مزق البرتغاليون السفن الفرنسية وأحرقوها وذبحوا الملاحين!

كارتيه كان مع هذه الحملة ونجح في الهرب بأعجوبة! إذن فطريق الجنوب

إلى الهند مغلق فلم يبق إلا الشمال.

غضب الملك وقرر تحت إغراء مغامر اسمه فيرازانو أن يرسل حملة أخرى بقيادته لشق الطريق من الشمال إلى كاثاي، كما كان يدعون الصين. أبحرت الحملة في مطلع سنة ١٥٢٤ وألقت مراسيها في «أرض لم يعرفها أحد بعد» كذلك قال فيرازانو! رجالها عراة. غاباتها ونباتاتها غريبة. لكن سكانها المتوحشين طاردوه بالسهام كالمطر فانسحب وعاد... وكان كارتيه معه في هذه الحملة أيضاً!

هل ضرب كارتيه صفحاً عن حلمه؟ لقد توظف وصار مراقباً في الميناء وصارت له أسرة وأولاد. وكاثاي ظلت حلماً يفوته. في عتمة الليل، على الشموع كان يجلس الساعات إلى الخرائط يكتب التقارير للملك وينظم في رأسه الحملات، لعله يعوض فشل فيرازانوا! إنه على استعداد لتمويل بعض الحملة. ولكن هل يقبل الملك بتبنيها؟ لكن عبثاً ما كان يرسم ويكتب للأميرال شابو. الصمت المطلق هو الجواب!

وذات يوم زار الملك فرانسوا مدينة سان مالوا. وكانت فرصة ذهبية أن يحدثه كارتيه من خلال البوصلة والفرجار والخرائط عن مشروعه. ويظفر بموافقته لكشف الطريق إلى كاثاي من الشمال. ووعده الملك ستة آلاف فرنك. إنه مبلغ جيد يومذاك. ولكن الأميرالية البحرية لم تستعجل أبداً بدفع المبلغ. واقترض كارتيه فاشترى سفينتين وزودهما بالسلاح والمؤن والملاحين. وفي ربيع سنة ١٥٣٤ كان يبحر! بعد عشرين يوماً كان مراقب سفينته يصيح: الأرض الأرض! وصل كارتيه ولكن إلى أين؟ ظل أسابيع وهو يطوف بين جزر مجهولة يمنحها الأسماء على ما يعن في خاطره. أو يحجزه الجليد عن بعضها فيتوقف.. ووجد خليجاً كبيراً ظنه ممراً فأبحر فيه ووصل إلى بقاع جرداء... ما انفكت تصبح أرضاً بلقع أمامه. تصلح للصيد كما يصلح البحر نفسه بكثرة سمكه. ولكن أين كاثاي؟ أبحر قدماً حتى أتى مواضع أخرى تحسبها الجنة أو بعضاً منها. لم يكن كارتيه شاعراً ولكنه لم يملك نفسه أمامها أن يدهش لبراريها

السندسية الزاخرة بألوان الزهر ولأشجارها الملتفة وفتون الظلال.

هنا ظهر له بعض البشر. ولكنهم شديدو السمرة وليسوا صفراً وذوو عيون عادية وليست مائلة ! وخاب أمل كارتيه كل الخيبة. صحيح أنهم استقبلوه بفرح. تقبلوا هداياه من الملابس وبادلوه الهدايا من السكاكين. ولكن ماذا يفيد ذلك وقد عرف منهم أنه لايبحر في ممر بحرى ولكن في خليج واسع مغلق! زعميهم الذي كان يرتدي جلد دب وهو قادم إليه محفوفاً بأولاده الثلاثة وبأخيه صعد المركب وبادل بالجلد الذي يرتديه فأساً أهداها إياه كارتيه مع قبعة حمراء. وقبل أن يذهب اثنان من أولاده مع كارتيه على أن يعيدهما بعد اثني عشر قمراً!.

كارتيه أراد أن يثبت بهما للملك أنه وإن لم يجد الطريق إلى الصين فقد وجد لفرنسا أرضاً جديدة! بعد شهرين آخرين من البحث العبثي عاد كارتيه إلى فرنسا. لم يكن يعلم أنه إنما كان يدور في الجزر والخلجان شمال شرقي كندا! وأن الصليب الذي زرعه باسم ملك فرنسا لم يكن يعني الكثير. لقد استغرقت الرحلة ١٣٧يوماً وحصيلتها العودة بهنديين زائرين!

استقبل كارتيه بمزيج من الاعجاب وخيبة الأمل واستقبل الهنديان في البلاط الفرنسي بالترحاب. ولكن كارتيه ظل يؤمن أن الفتحة البحرية التي سلك والتي يتقاتل فيها ذئاب البحر مع الحيتان وسمك السومون تؤدي إلى البحر الجنوبي وإلى آسيا الأسطورية وإلى الصين بلد الأعاجيب! واقتنع الملك الفرنسي فأعطى (شابو) أميرال فرنسا الأمر بتجهيز ثلاث سفن تكفي مؤونتها لخمسة عشرشهراً وعهد بها إلى كارتيه ليبقى هناك في الشتاء القادم.

في مايس سنة ١٥٣٥ تحركت السفن الثلاث تحمل ١٢٥ بحاراً ومع بعضهم عائلاتهم وعدد من الأقارب وباركها أسقف سان مالوا قبل السفر! كان كارتيه يحمل معه كل نهم الملك الفرنسي للذهب، لكنه في قرارة نفسه كان يأمل بالمهمة الأخرى، النجاح في معرفة الممر إلى الصين. في شهر آب كان كارتيه يعاود المحاولة ويدخل أعمق فأعمق في مجاهل الشمال الكندي في نهر سان

لوران. الهنديان اللذان معه أبلغاه أن يخترق مملكتين على طرفي النهر: مملكة الساغوان ومملكة كندا... وأن النهر يأتي من البعيد، من حيث لايدري أحد. وصل في أوائل سبتمبر إلى القرية الهندية ستاداغومه (وهي التي سوف تقوم في موضعها مدينة كيبيك). رقص النساء والأطفال وغنوا وهم يخوضون النهر إليه حتى الأعناق. أما كارتيه فكان مفتوناً بالمنظر الطبيعي بغابات البلوط والكستناء بوفرة الحيوانات. بالطيور. بالكروم الوحشية والبراري الخضراء حتى الأفق.

ولكن الأمور ساءت بسرعة حين كانت إحدى السفن تحاول المسير إلى بلدة هوشيلاغا (وهي التي سوف تسمى مونريال) رفض زعيم القبيلة وأبلغ كارتيه أن النهر لايصلح بعد للسفن وسوف يقضي البحارة في محيط من الجمد. لكنه تابع الرحلة فانغرست سفينة من سفنه في الوحول. ولم يأبه واصل السير أربعة أيام حتى أطل على البلدة المبنية في أسفل جبل سماه كارتيه مونريال (الجبل الملكي) في هذه المدينة المدورة المحاطة بسور ثلاثي الجدران لامدخل إليها إلا من باب واحد والتي يقوم منزل الزعيم في وسطها استقبل كارتيه بترحاب منقطع النظير من الفرح. جميع المدينة رقصت له في حين امتلأت سفنه بالخبز والسمك الذي كان يهبط عليها كالمطر! وأبلغه السكان بواسطة سلاسل الفضة في أبواقهم ومقابض الذهب في خناجرهم أن هذه المعادن موجودة بكثرة في جبال الشمال!

ولكن كيف السبيل إليها والشتاء قادم؟ لابد من انتظار مطالع الصيف. وعاد كارتيه إلى ستاكونيه. وهناك لأول مرة عرف التدخين! ورأى الهنود يدخنون. كما سمع من زعيم القبيلة قصصاً عما لدى الساغوناي من النحاس الأحمر اللامع ومن الفواكه الذهبية والجوهرات والماس... لكن الشتاء ازداد قسوة. برد رهيب قاتل أخذ بحارته وتفشى فيهم داء الاسخربوط فلم يبق منهم سوى عشرين على السفن الثلاث التي حاصرها التجمد أربعة أشهر. وفقد الباقون الأمل في العودة... لكن الهنود قدموا له علاجاً أنقذهم...

واستشار كارتيه الملاحين فأجمعوا على العودة. وعاد بهم. ومرت شهور قبل أن يقدم تقريره للملك الذي كان يحارب في الجنوب. و كان عنده الوقت الكافي لاعداد ما يقدمه له: لقد كشف شمال آسيا لبلاده فرنسا! هكذا ظن ـ ورسم الخرائط لذلك... ورضى الملك حين عاد بهذا الكشف عن أراضي هوشيلاغا الآسيوية (في زعمه) ومنح كارتيه خمس سفن ليتابع الاكتشاف!... كان أمله كبيراً في غزو هذه الأرض وما فيها من ذهب وجوهر. ومع أن كارتيه قد بلغ الخمسين إلا أنه لم يفقد الثقة في حلمه: أن يجد الممر إلى الصين وذهب بالسفن الخمس ليكتشف بأي ثمن كنوز الساغوناي. وصعد النهر حتى وصل إلى حيث ملأ سفنه بالذهب والماس وقضى الشتاء هناك مرغماً وخسر ٣٥ من رجاله بسهام الهنود. وعاد إلى فرنسا يفرغ الكنز أمام الملك ... وفجع الرجل حين قال الخبراء إنها ليست ذهباً ولاماساً ولكنها خليط من الميكا وذرور الذهب.

كانت هذه هي الرحلة الأخيرة لكارتيه الذي قبع في بيته يقرأ ثم يقرأ... مات وهو في السبعين دون أن يعلم أنه لم يكتشف سوى الشمال الشرقي من كندا... هل كان اكتشافه يا ترى خيبة كبيرة أم نجاحاً كبيراً؟

حب المال... يقود إلى الصين

منذ ٧٠٠ سنة كانت الصين أبعد منطقة في الأرض وأغمض نقطة في المعمور وإذا عرفها العرب لماماً فإن أهل أوروبا كانوا لايعرفون عنها شيئاً. يحسبونها أرض الخرافات والعفاريت. والثروات التي لاتنتهي. وإذا كان من المأثور لدينا يومذاك أن اطلبوا العلم ولو في الصين فإن المأثور الأوروبي ـ على ما يبدو ـ كان اطلبوا الثروة ولو في الصين! كانت تتبدى لهم من خلال أغشية الحرير والذهب والأساطير بلد العجائب... ظلت كذلك حتى مطالع القرن الرابع عشر؟ زارها بعض الأوروبيين قبلاً والمصادفة وحدها هي التي تركت مذكرات واحد منهم... ليُشتَهَرَ ويصبح أول مكتشف للصين من الأوروبيين، وليسجلوا اسمه على أنه أشهر مكتشف رحالة في جميع العصور! إنه ماركوبولو.

القصة كتبت سنة ١٢٩٩ في السجن في المدينة الايطالية جنوة. خلال الحروب التجارية التي كانت تثور يومذاك بين البندقية وجنوة بسبب احتكار التجارة مع الشرق. وقع في يد جنوة أسير كان يقود سفينة من سفن البندقية وأودع في السجن. وكان هو ماركوبولو! لم يكن للأسير يومئذ في بلده سوى سمعة الكذوب، ماركو المليونير أي ذي المليون حكاية وطالت هذه السمعة كذلك أباه وعمه اللذين كانا يدخلان في قصصه التي تتحدث عن عجائب الصين! فقد كانا يرافقانه في الرحلة إليها.

في السجن الذي دام ثلاث سنوات تعرف ماركوبولو على كاتب كتب له قصصه وهو بين مصدق ومكذب. وحين خرج ماركو من السجن كان معه

كتاب فيه قصة رحلته إلى الصين واكتشاف ما فيها... وخلال سنوات ذاع الكتاب كما لم يذع كتاب قبله. واكتشف الأوروبيون الصين من الباب الخلفي من خلال الكتاب. وظلوا يتوسعون في معرفتها حتى أكملوها في أواخر القرن الماضي!.

ماركوبولو كان ابن البندقية، المدينة الراقصة في البحر. أزقتها ماء والتنقل بين بيوتها بالسفن الصغيرة (الغوندولا) وأهلها تجار كانوا منذ قرنين قبل ولادة ماركوبولو يحاولون احتكار تجارة الشرق كلها. وكان عمر ماركوبولو حين نزل المغول ببغداد وأزالوا الخلافة العباسية أربع سنوات. والحروب الصليبية في الشرق تشرف على أواخرها. وآباء ماركوبولو كانوا تجاراً يملكون متجراً في جزيرة القرم يتلقون فيه البضاعة القادمة من الصين... ليشتروها قبل غيرهم في تلك الجزيرة النائية ويبيعوها لأوروبا.

في المرة الأخيرة التي ودع فيها ماركوبولو أباه وعمه على رصيف قصر الدوتشه كان طفلاً. وعاد مع أمه إلى البيت ينتظر هدايا أبيه عند العودة... ولكن الشهور والسنوات مرت دون أن يعودا؟ وماتت أمه وهو لايكاد يتذكر ملامح أبيه. وفي يوم من أيام سنة ١٢٦٩ وعمره ١٥ سنة. رست سفينة قادمة من القسطنطينية وعليها الأب والعم وسمع منهما ماركو لأول مرة حكايا عجيبة عن الصين شطحت بخياله شرقاً وغرباً. كانا في الصين! بعد سنتين كان ماركو الشاب يرافق والده وعمه على مركب متجه إلى الشرق. كان فرحاً ولم يكن يعلم أن أمامه ثلاث سنوات ونصف من المسير ليصل ذلك العالم الآخر المبهم!

القسم الأول من الرحلة لم يكن شيئاً. البحر المتوسط من البندقية إلى عكا حرثته السفن الايطالية حرثاً بما فيه من عواصف وأمواج. والطريق إلى القدس مفتوح. وقد لقي الثلاثة فيها راهباً حدثوه بما في خواطرهم: أن يحولوا الصين إلى المسيحية فاختار لمرافقتهم اثنين كانا على استعداد لخدمة الكنيسة. كانت عكا من أواخر البلاد الباقية بيد الصليبيين الفرنجة في الشام فركبوا

البحر على الشاطىء إلى بياس في الشمال، مدينة التوابل وأنسجة الذهب وبدأت منها رحلة الاكتشاف إلى الصين...

اجتازوا جبال الثلوج الأرمينية ومزالقها الوعرة والأودية لاتنتهي عدداً. الطرق كانت تضيق أحياناً فتمر بها القافلة دابة دابة، وتضيع أحياناً أخرى فلابد من دليل ويحتاج قطع الأنهار إلى مساومة أصحاب السفن الصغيرة، أو إلى المخاطرة في وديان الرعب... ولكن أمل الوصول إلى أرض الثروة كان دوماً يرقص لهم من بعيد. فيتابعون الطريق عبر الصخور والخوانق. ودب الرعب والذعر حين وصلوا ايران منحدرين نحو الجنوب باتجاه مدينة هرمز، في أعلى خليج عمان، وعلى مدخل الخليج أول الطريق البحرية إلى الصين. الحرب بين المماليك والمغول هناك لم تكن شيئاً أمام مخاطر قطاع الطرق. واختار الراهبان العودة. أما التجار فأكملوا الطريق... تارة على البغال والجمال وتارات على الجمال وقد يبيتون في العراء تحت النجوم.

في هذا القسم من الرحلة اكتشف ماركو، في مدينة باكو أن الناس اعتادوا أخذ سائل أسود كريه الرائحة من بعض الينابيع ليوقدوا منه أو يستنيروا. وسمع بسفينة نوح المستقرة في أعلى جبال أرارات وسمع بأساطير كثيرة أثارت روعه وألهبت خياله... وحين وصلت الجماعة بغداد ودهش ماركو لما يراه من سعتها وبنائها قال أبوه: الصين أروع. فماذا تراها تكون هذه الصين؟

على الطريق إلى هرمز هاجمهم قطاع الطريق. حرس القافلة التي كانوا يشتركون فيها، تحولوا إلى فرسان من الجن لحمايتهم مع القافلة. ومع أن الرعب كان مايزال يأخذهم على الطريق فقد وجدوا الفرصة للصيد والقنص وفي كرمان وجدوا واحات وجنات خصبة لكنهم فوجئوا في هرمز بمراكب لم تعجبهم! كانت أخشابها مخيطة بعضها إلى بعض بأمراس وليس بالمسامير كما اعتادوا في البحر المتوسط ولا مراسي لها... وقرروا متابعة الطريق في البر... عادوا مرة أخرى إلى كرمان ومنها إلى الشمال ليأخذوا طريق الحرير... لم يكن له من الحرير إلا الاسم وأما واقعه فالموت الأسود عبر الصحاري والقفر والضباب... وسيوف قطاع

الطريق! الطريق في معظمه رمال في رمال وتسلق طرق صخرية. لاشجرة لاماء ليس سوى الكثبان وريحها الغبراء حتى بلخ.

ومنها تحركوا إلى كشغر وكان هذا يعني الصعود إلى هضبة التيبت التي تسمى سقف العالم! واجتازوا الجنات شمالي كشمير ليدخلوا من جديد في الصحراء اللانهائية: صحراء غوبي التي قضوا شهراً يقطعونها. إنها قطعة منسية من العالم! كانوا يسمونها: روح الشيطان! لما يرى فيها من عظام الهالكين بالجوع والعطش.

ومن مداعبات السراب والتهاب الجفون ومن الأشباح تقرع الطبول وتستدرج المسافرين إلى... الموت!

حين انفتحت عليهم بعد ذلك أرض الصين وجدوا فيها الجنة الموعودة وحين وصلوا مدينة كان شو أشرفوا على سد الصين الأعظم. إنه سور بطول ١٤٠٠ ميل (٢٢٠٠كم) تسير في أعلاه مركبتان معاً وتسنده بين الفينة والفينة أبراج وعليها الجند. بناه أباطرة الصين لحمايتها من البرابرة. وكان على البنادقة الثلاثة أن يسيروا أربعين يوماً أخرى ليصلوا إلى بكين حين وصلت أوامر الامبراطور بحسن استقبالهم. كيف عرف بذلك؟ بنظام البريد الذي اتخذه العرب أيضاً ومحطاته المستعدة دوماً لمواصلة السفر السريع بالأخبار بسرعة ٥٠٠ ميل (٨٠٠كم) في اليوم. بعد أربعين يوماً كانوا في قصر الامبراطور قبلاي خان!

الجزء الأهم من رحلة ماركوبولو هنا يبدأ. إنه اكتشاف عالم آخر من البشر عالم الصفر! طعامهم. ملابسهم المنازل! المعابد. الدين اللغة. الكتابة... كل شيء مغاير للعالم الذي يعرفه ماركوبولو في البندقية: المغول لايستحمون لأنهم يخشون إغضاب أرواح النهر، العفاريت هناك تحرك المائدة. قطع الشطرنج تتحرك من ذاتها. الخاقان يتنقل في غرفة خشبية مزخرفة محمولة على الأعناق ومطعمة بالذهب بعد أن ترش الأرض بلبن الحمير لإرضاء أرواح الأرض. ويروي ماركوبولو شيئاً من دسائس البلاط التي ذهبت بالوزير أحمد وقصة العملة الورقية التي يقبلها الناس بدل الورق. ونظام البريد وبقايا أسنان الفيل

التي جلبوها من سيلان بوصفها أسنان بوذا وكيف اصطف الناس طوابير بالألوف المؤلفة للتبرك بها على قرع الطبول. بالاضافة إلى ما وصف من جمال بكين وشوارعها ومن قصر الامبراطور في أعلى المدينة وزخارفه الذهبية وجنائنه المدهشة وسوره العالي.

عرف ماركوبولو كل ذلك لأن الامبراطور قبلاي خان استخدمه في القصر ثم ولاه بعض الولايات وأرسله سفيراً في مهمات عديدة وصل بعضها إلى سيلان لجلب بقايا بوذا... وهناك في أعلى الجبل شهد البحيرة التي تشكلت حين داس آدم أول قدم على الأرض.كذلك يقولون!

بعد سبع عشرة سنة قرر ماركوبولو العودة مع أبيه وعمه وثروته إلى البندقية. وعاد البنادقة الثلاثة إليها. لم يكن الرجل يعلم أنه عاد بما هو أثمن وأغلى من الجواهر والذهب الذي حمل...

عاد باكتشاف فتح باب المغامرة على مصراعيه لمن بعده من الأوروبيين عدة قرون!

الغريب أن أحداً لم يعرف مصيره بعد أن وضع الكتاب!

رفيق ماجلان

في نهاية كتاب طبع منذ أربع مائة سنة وبعد موت صاحبه بكثير، كتب صاحبه:

«في يوم الاثنين ٨ سبتمبر سنة ١٥٢٢ أنزلنا مدفعيتنا عن السفينة، وفي اليوم التالي خرجنا حفاة وعلينا أكفاتنا، نحمل المشاعل في أيدينا لنزور كنيسة مريم النصر! أما أنا فذهبت إلى بلد الوليد **Valladolid** في الأندلس، إلى سيدي المقدس الملك شارلكان لاأحمل إليه ذهباً ولافضة ولكن قدمت له مخطوطاً كتبته بيدي حول كل ما رأينا وماعايننا.

الكتاب كان يحمل في صفحته الأولى عنوان: «عجائب العالم» والمتحدث اسمه انطونيو بيغافيتا اللومباردي، كان واحدٌ من الرجال الثمانية عشر الذين بقوا من أول رحلة طافت حول العالم في التاريخ كله. كانوا خمس سفن من مائتين وثلاثين رجلاً حين أبحروا قبل ثلاث سنوات ليكتشفوا الطريق إلى الصين وجزر التوابل من الغرب بقيادة البحار ماجيلانوس. وعادت منهم فقط سفينة واحدة يقودها بحار آخر اسمه سيباستيان دلكانو، وعليها معه أولئك الثمانية عشر من الرجال الحفاة الذين حملوا المشاعل والأكفان إلى كنيسة مريم النصر في اشبيلية! بالأندلس. الملك هناك كان شارلكان (الخامس) الذي كان يومذاك في الثانية والعشرين من العمر ولكنه مع ذلك كان يملك أكبر مملكة في السعة عرفها العالم حتى ذلك الحين.

دلكانو قائد السفينة العائدة قطف وحده ثمار النصر ومجده. ما اهتم أحد بذلك الشاب الغامض بيغافيتا الذي لولاه لم يعرف أحد من الناس قصة تلك الرحلة الرائعة بأمجادها ومآسيها.

ومن المفارقات أن هذا الرجل لم يكن بحاراً ولاغرام له بالماء والموج. وكان رحيله مع الرحلة مصادفة. وتعلق بها كما يتعلق نبات اللبلاب على جذوع

الشجر الضخم في الغاب! لكنه كان البوق الذي انطلق بعد العودة يروي ثم يروي ثم يروي قصصها لجميع البارزين في أوروبا يومذاك! قام بالدور الذي كان ممكناً أن يقوم به ماجلان نفسه... لولا أنه قتل في منتصف الطريق! ولعلنا نضيف هنا أن بيغافيتا كان من جماعة فرسان رودوس وهم البقية الباقية من الصليبيين المطرودين من الشام، ومن أسرة تحمل بعض النبل من فلورنسة وأنه انضم إلى أعظم الرحلات الاكتشافية كاتباً. وصار أهم رفاق ماجلان والراوية الوحيد لاكتشافه الأكبر الذي شارك هو نفسه فيه. لم يكن الذهب هو الذي جره إلى ذلك الفريق من المغامرين والملاحين الذين جمعهم ماجلان على مراكبه ولكنها الرغبة في الكشف وفي معرفة الجديد والغريب! ولقد استعان شكسبير نفسه فيما بعد بالصفحات التي كتبها بيغافيتا يصف فيها ثورة البحر وهياجه في مسرحيته الشهيرة بالعاصفة.

في الأسابيع الأحد عشر الأولى اقتصر ما دونه بيغافيتا على ذكر حكايات تتعلق بكلاب البحر والطيور والأثمار الغريبة. ويبدو وأنه فاته ذكر القصة الكبرى التي شغلت السفن الخمس: كان ماجلان برتغالي الأصل والحملة التي يقودها إسبانية والزحام بين الشعبين على الكشف والفتح كان في أوجه. وكان من السهل أن يتهم الربابنة الاسبان قائدهم بأي شيء. ومنذ غير الطريق المعهودة ولم يشاورهم علم أن مؤامرة تحاك ضده يتزعمها خوان دي كارتاهينا، أحد الربابنة الاسبان. وبعد أيام ظهر التآمر حين رفضت سفينته تحية القائد العام كالعادة كل مساء. وكتم ماجلان الإهانة أياماً فإن كارتاهينا كان من أقرباء الملك الاسباني! ودعا الربابنة بعدها للتشاور فما وصل الرجل حتى أخذ ماجلان بتلابيبه صائحاً: أنت أسيري! وأمر باعتقاله وبعث بديلاً عنه للقيادة بعض أقربائه. قوانين البحر تعطي القائد العام هذا الحق.

حين وصلت السفن ساحل البرازيل أدهش بيغافيتا مارآه من رخص الأسعار لدى الهنود الذين لقيهم هناك عشر ببغاوات نظير مرآة صغيرة. وخمس دجاجات نظير صنارة صيد. وجرس واحد يكفي مقابل سلة من البطاطس!

وأرخص من كل ذلك الفتيات شعورهن هي كل مايرتدينه من ثياب ومقابل سكين أو فأس يحصل الرجل على جاريتين أو ثلاث، ملك اليمين.

سايرت السفن بعد ذلك الساحل البرازيلي نحو الجنوب حتى ريودي جانيرو ثم إلى مونتفيديو حيث بحثت عبثاً في الخليج الذي لقيته هناك عن الممر الذي يتصور ماجلان وجوده في بعض الأرض وخرج خائباً. كان الخليج مصب نهر لابلاتا أوسع مصبات الأنهر في العالم فعرضه يبلغ ٣٢٠ كيلومترا! وعند هذا الخليج تنتهي الخرائط التي يمتلكها ماجلان وعليه من بعد أن يبحر في العماء نحو الجنوب. وقابله بعد ذلك خليج ضخم آخر بعث بعض السفن تستطلعه فعادت وأعلامها تشير إلى الخيبة. وتكررت الخيبة مرة ثالثة ورابعة. كان يبحث عن جزر ملوك جزر التوابل وعن كاثاي (الصين) ولكن أنى الممر إليها؟

وداهم الشتاء السفن وأخذت العواصف العنيفة تعبث بالقلوع والثلج يتساقط عليها. والزمهرير يجمد حتى الجفون. والقافلة تبطيء ثم تبطيء في الماء. والرياح كالزوابع تلعب بالسفن والأشرعة. وطال الإبحار بعد خليج لابلاتا شهرين والممر لم يظهر بعد... مرت على خروجها من اشبيلية بستة أشهر! وبدأت أحلام الذهب والكشف تتقلص وتبعد، وظلام الضباب يتكاثف حول البحارة... والعزلة القاتلة تفترس الأعصاب والشجاعة أمام الجليد اللانهائي، وبدأت الشكوك تثرثر بين البحارة: أين يسير هذا البرتغالي؟ وأما هو ماجلان فلا يجرؤ أن يقول لأحد: لم أعد أعرف طريقي!...قد يخسر في هذه الكلمة حياته! وقرر ماجلان قضاء الشتاء في بعض الخلجان! فقد بدا المرض والموت يتخطفان البحارة. ولم يبد من جزر ملوك ذات التوابل ولامن أرض الصين أفق.

وذات يوم قرر الربابنة الثلاثة أمراً. انطلق زورق، في جنح الليل مع ثلاثين مسلحاً إلى السفينة الرابعة التي يقودها قريب ماجلان فقتلوه وسلموا السفينة إلى قائد يواليهم هو خوان سيباستيان دلكانو الذي قدر له أن يقود

الحملة من الفيليبين فيما بعد إلى اشبيلية.

عرف ماجلان في الصباح ماحدث في الليل حين وصله زورق من السفن الأربع يسترحم من القائد العام أن يفاوض المتمردين، ويروي بيغافيتا كيف انتصر ماجلان على العصاة. أرسل زورقاً إلى إحدى السفن المتمردة من خمسة رجال حسبوه جاء للمفاوضة وما كاد يصعد السفينة حتى قتل قائدها. في حين كان زورق آخر يقل خمسة عشر رجلاً يتسلق الحبال إلى السفينة نفسها ويتسلم قيادتها قائد جديد نشر قلوعها منضماً إلى سفينة القيادة. ومالت كفة الريح إلى جانب ماجلان، ولم يكن أسهل بعد ذلك من الاستيلاء على باقي السفن التي شلتها الحركة السريعة وبحارتها في انبهار. وأقام ماجلان إثر ذلك محكمة على سفينته قضت بإعدام أحد العصاة وأعدم بالسيف! ثم قطعت جثته وعلقت على الأوتاد! أما العاصي الآخر وكاهن سفينته فقد كان الحكم عليهما أشنع من الإعدام. أنزلهما ماجلان إلى البر مع بعض المؤن وأمر السفن بنشر الأشرعة والسفر الفوري... إلى موقع بعيد...

بعد أربعة أشهر، حين أقبل الربيع سارت السفن إلى الجنوب مرة أخرى ولمحت في السهوب لأول مرة رجلاً سموه باتاغون أي صاحب القدم الكبيرة حين اقترب. كان عملاقاً ضخماً لكنهم ما لبثوا بحجة الأساور أن قيدوا رجليه وحملوه في السفينة بين دهشة أهله المتجمعين على الشاطىء. لكن القافلة ما لبثت عند غياب إحدى السفن التي كانت تستطلع أن بدأت الوشوات تصبح جهراً بين البحارة بضرورة العودة للوطن. وإلا فإلى أين؟ بعد سنة من الإبحار: لاشيء! يقول بيغافيتا إنه هو نفسه يئس كما يئس الجميع بمن فيهم القائد العام. لكنهم كانوا مع ذلك يبحرون إلى الجنوب. وكل شيء أمامهم مياه كئيبة تحت سماء أشد كآبة وخليج أجرد فيه قليل من الشكوك! كانوا قد وصلوا الممر وهم لايدرون. وحين قسم ماجلان سفينته قسمين لاستطلاع أعماق الخليج عادت له سفينتان بأعلام النصر يظهر أنه الممر! وانطلقت المدافع! .

لم يكتمل نصر ماجلان لأن عبور الممر واجهته العواصف أياماً كاملة

ورقصت بالسفن. ولم تظهر نهاية الممر الطويل بعد. ودعا ماجلان الربانية ليعرف حالة المدخر من المؤن فأبلغوه جميعاً أنه محدود جداً وقالوا له إن السفن نفسها لم تعد قادرة على متابعة السير ولابد من العودة إلى اشبيلية... وأصر ماجلان على المتابعة ولو أكل البحارة جلود الصواري. وتابع الابحار في بحر من اليأس، بين الجزر الكثيرة يريد المخرج. بكى حين وصل إليه ولكنه فوجىء في تلك اللحظة بهرب إحدى السفن. هربت عائدة وربانها أسير عليها ومعها أجود المؤن!...

مع ذلك أمر القائد بالإبحار في ثلاث سفن في المحيط الهادي الذي لم تبحر به سفينة من قبل! ومرت الأسابيع والشهور عليها والجوع والمرض يتخطفان البحارة... وبليت الثياب والقلوع والحبال وليس إلا قبة السماء تغطي صفحة الماء. زرقة في زرقة... والمؤن تتناقص حتى أكل البحارة الجلود كذا قال بيغافيتا. وانتشرت أعراض الاسخربوط فمات العديد من البحارة وذهبوا طعاماً للسمك... وبدت لهم جزيرة كالسراب جرداء.

كان قد مر على مغادرة الممر الأمريكي مائة يوم حين وصلت السفن إلى الأرض الأخرى التي سماها ماجلان الفيليبين على اسم الملك الاسباني يومذاك فيليب! بيغافيتا هو الذي يروي بقية أخبار الرحلة لأن ماجلان قتل في نزاع سخيف مع السكان الأصليين تحدث عنه بيغافيتا بإسهاب. ثم كان دليل المكتشفين في هذه المرحلة تاجر مغربي أوصلهم إلى الهند.

وعلى الطريق ملأوا جعابهم من الذهب. بعض الجزر كان الحديد لديها أغلى منه! ثم ملأوا المركب بالتوابل... وخسروا سفينة تصدعت واضطروا لإحراقها وخسروا بالجوع كثيراً من البحارة فالمرافىء كلها برتغالية ولا يجرؤون على الاقتراب منها... وأكل البحر الجثث العديدة منهم بالإرهاق الشديد!

أعجب ماكتشفه بيغافيتا عند جزر الرأس الأخضر أنه وهو الذي

يكتب المذكرات يوماً يوماً وجد نفسه قد ربح بدوره على الأرض يوماً كاملاً من العمر من حيث لايدري!

هل تراه ربح يوماً واحداً أم ربح الخلود؟

تفاحة نيوتن

يروون عن كريستوف كولومب أن حساده، بعد اكتشاف أمريكا، صاروا يستهينون به. ويستهزئون بقيمة ما كشف:

ـ ماذا فعلت سوى أنك سرت غرباً غرباً فوصلت؟

وذات يوم واجهه بعضهم، في إحدى الحانات بهذا السؤال الهازىء نفسه فقال:

ـ لاعليك. ولكني تعلمت هناك لعبة طريفة نشترك كلنا بها. هاتوا بيضة وصحناً. جاؤوا بهما فقال: تعلمت هذه هي اللعبة فجربوها. من منكم يستطيع إيقاف البيضة على أحد رأسيها؟

وحاولوا ثم حاولوا عبثاً، حين عجزوا. أمسك كولومبوس بالبيضة فضربها على أحد الرأسين فاستقرت. وصاح الجميع: ولكن كلنا يستطيع ذلك! فأجاب: ولكن لماذا لم تفكروا به؟

كذلك يستطيع كل صاحب نجاح أو كشف أن يصفع المنتقصين منه بكلمة: لماذا لم تفكروا به؟ كذلك أيضاً كان شأن العالم نيوتن... أتعرفون الرجل؟

إنه فيزيائي ورياضي انكليزي ولد قبل نيف و٣٥٠ سنة في لاكشير. ويقولون إنه كان جالساً ذات يوم يقرأ في ظل الأشجار فسقطت تفاحة منها. فهب من جلسته قائلاً: وجدت القانون! كانت ملايين التفاح قد سقطت قبله أمام عيون الملايين. ومازال تسقط ولكن أحداً منهم لم يكتشف ما اكتشف هذا الرجل من القانون العلمي حتى أضحى بهذا الكشف واحداً من أهم وأشهر رجال العلم في التاريخ الحديث وواضعي أسسه.

هل كان سقوط التفاحة حقاً هو الذي جاءه بالكشف؟ الواقع أنها التماعة خاطر بعد ست عشرة سنة من التفكير الملح في هذه الظاهرة: سقوط

الأجسام على الأرض! نيوتن، الذي أضحى من أخلد علماء الأرض المعدودين كان ابناً وحيداً لأب توفي قبل ولادة ابنه بثلاثة أشهر. وكانت ولادته في السنة التي مات بها غاليله العالم الايطالي الذي أخذ عنه نيوتن الكثير من الأفكار الرياضية والعلمية. فهو إذن كان يتيماً من الأيتام قبل أن يولد.

وكان طفلاً ضعيفاً حين ولد لدرجة أن أهله لم يقدروا له أن يعيش بضعة أيام عند ولادته. فضلاً عن أن يعمر ٨٤ سنة. ولم يكن قد بلغ السنتين حتى فقد أمه. لقد تزوجت زوجاً آخر وترك نيوتن عند جدته وعاش في قرية قريبة مع عائلته. وتيتم الفتى مرة أخرى. وقد مات زوج أمه بعد تسع سنوات ولكنه ظل يحقد عليه وعلى أمه التي أخرجته من المدرسة بعد قليل ليرعى أملاكها الموروثة. ولم يكن باستطاعة نيوتن أن يركز تفكيره الرياضي - الفيزيائي على الأمور الريفية والزراعية فكان دوماً يجلس إلى ظل شجرة وينصرف إلى القراءة! وسحقاً للزراعة والمزارعين! ولحسن حظه أصلحت الأم غلطتها بعد ذلك وانتزعت نيوتن من تأملاته لتبعث به إلى المدرسة، مدرسة غرانتهام التي كان يدرس فيها من قبل ليهيىء نفسه للجامعة. كما اتفق أن عرف ذلك عن عدد من علماء عصره، بميله للأعمال الميكانيكية وبنائه عدداً من نماذجها كالساعات وغيرها. وإذا امتلك الكثير من اللغة اللاتينية في المدرسة فحصيلته من الرياضيات فيها كانت هزيلة.

دخل نيوتن بعد ذلك جامعة كمبردج سنة ١٦٦١ كانت الحركة التي يدعونها في ذلك الحين بالثورة العلمية في أوجها. ظهرت فيها عدد من الأعمال الأساسية. فلكيون من أمثال كوبرنيك وكبلر أقاموا النظام الشمسي على أسس جديدة. علماء مثل غاليله بنوا ميكانيكية جديدة للحركة والعطالة. فلاسفة عديدون للكون يقودهم ديكارت، الفيلسوف الفرنسي بدأوا يصوغون مفهوماً جديداً للطبيعة بوصفها آلة معقدة، لاشخصية، ولاحركة ذاتية فيها في حين لم تكن جميع جامعات أوروبا بما فيها كمبردج، جامعة صاحبنا نيوتن لاتقول بذلك. كانت ما تزال على المفهوم الأرسطي وتتعامل مع الطبيعة على

الأساس الوصفي لا على الأساس الكمي والتجريبي. وعلى هذه الأفكار قضى نيوتن فترته الجامعية وإن كان الجو مشحوناً بالأفكار الأخرى إلى أن اكتشف نيوتن بنفسه ديكارت وأفكاره الثورية في العلم مع الأفكار الميكانيكية لغيره. إنهم ينظرون إلى الطبيعة بعكس أرسطو نظرة فيزيائية واقعية على أنها تتألف كلها من أجزاء لاتنتهي. ولكن تتحرك كلها حسب قانون واحد. ظواهر كلها مرتبطة بعضها مع بعض بقانون نظيم ولكن ما هو هذا القانون؟ وأصدر نيوتن ملاحظاته العلمية في كتاب، بعنوان بعض المشكلات الفلسفية سنة ١٦٦٤ كانت الفيزياء ما تزال مشكلة فلسفية! كما كانت في الكتاب هذه الكلمة المأثورة: أفلاطون صديقي وأرسطو صديقي ولكن الحقيقة هي أحب الأصدقاء...

كشف نيوتن في هذا الكتاب أنه وضع الإطار للثورة العلمية التي كانت تقتحم طريقها إلى العلماء. وأنه قد انتهى إلى فلسفة أكثر جاذبية من فلسفة ديكارت، وأعانته بحوث الكيميائي هزي مور في شطحاته الفكرية وفي توسيع قاعدته الفكرية وتدعيم رأيه بجانب الهندسة التحليلية التي نشرها ديكارت ودراساته في علم الجبر... في أقل من سنة صار لنيوتن مدرسته الفكرية الحديثة: صار له خطه الفكري الذي كان يغنيه بأعمال الآخرين ويعمقه بربط الدراسات المختلفة بعضها مع بعض.

الكثيرون كانوا يتهمون نيوتن بأنه يبني مجده على أكتاف الآخرين. يأخذ نتائج أعمالهم فيربطها بعضها مع بعض ولم يكن هو نفسه ينكر هذا ولكن... لماذا لا يقوم هؤلاء القعدة من النقاد اللاذعين بمثل عمله؟ لماذا لاينسجون من النتائج المتفرقة موقفاً فكرياً موحداً؟.

حين نال نيوتن إجازته الجامعية في ابريل سنة ١٦٦٥ كان أبرز من تخرج في تاريخ جامعة كمبردج. لكن هذا الحدث راح مغموراً. وأغلقت الجامعة بعده سنتين... كان طاعون سنة ١٦٦٥ قد انتشر فالهواء الأصفر يعصف في الشوارع والبيوت عصفاً. وانقطع نيوتن لتأملاته الرياضية والفيزيائية والفلسفية وكتب كتابين حول الألوان وحول النظر... ووضع

الأسس لمعظم اكتشافاته العلمية. ولكن أحداً من الناس لم يسمع بها... ولقد دافع عنها سنوات طويلة وحتى الوفاة .

ما هي هذه الاكتشافات؟

أهمها على الأقل القانون الذي قيل إن سقوط التفاحة قد أوحى به إليه. لقد لاحظ أن الجاذبية الأرضية هي التي تجذب التفاحة إلى الأرض وهو ما نسميه ثقلها. وربط بين سقوطها وبين حركة القمر الدوار التي يمكن أن تفسر التفسير نفسه بالجاذبية ثم انتقل بذلك إلى تفسير حركة المجموعة الشمسية كلها. وخلص من ذلك إلى قانون الجاذبية العام. ووضع له الصيغة الرياضية.

ونحن ندين إلى نيوتن بدين علمي آخر هو اكتشافه قانون انتشار الضوء. كشف أن الضوء الأبيض إنما هو خليط من سبعة أضواء فيها الأحمر والأزرق والبنفسجي والأصفر. قوس قزح يكشف ذلك. وندين له بكشف ثالث هو وضعه أسس حساب الكميات المتناهية في الصغر وندين له. وندين له...

لايهمنا بعد ذلك أن نيوتن تسلم منصب أستاذ الرياضيات في جامعة كمبردج منذ سنة ١٦٦٧ وأنه طور دراساته على أساس النتائج التي ابتكرها غيره ولكن يهمنا أن كشوفه أثارت النار عليه من أكثر من جبهة. الكشوف في الأرض، في ذلك الحين، كانوا يفرحون بها بوصفها امتداداً للنفوذ ومورداً للثروة والذهب. أما الكشوف العلمية فكانت تشق طريقها في الصخور. العلماء الذين نشأوا على معارف تقليدية معينة كان من الصعب عليهم أو من المهين أن يتقبلوا تغييرها... ولكنه رغم ذلك صار بطريق العلم الأول في انكلترا.

ويرحم الله كريستوف كولومب. ألم يعط حساده والحاقدين على تميزه الجواب المفحم؟

كشف ينتهي... بمأساة!

كالجدران الهائلة من الصخر ترتفع جبال الآند في غربي أمريكا اللاتينية كلها لولا أنها بيضاء من الثلج في القمم حتى سفوحها العليا وأنها ذات وديان يضيع فيها الصدى وأدغال لم تشهد الشمس منذ أزمان وأزمان.

هي العمود الفقري للقارة تمتد من أقصى شمالها إلى أقصى الجنوب. وفي أواسطها منطقة البيرو التي قد تكون من أكثر مناطق أمريكا الجنوبية نكبة يوم الاكتشافات قبل ٤٥٠ سنة.

مكتشفوها الأولون كانوا نماذج الجبروت البشري، طالت عليهم المسافات جداً، وطال السير المجهد وازداد مدى الارتفاعات أمامهم ثم ازداد وبدت كأنها ذات أربعة أبعاد. ومرت عليهم أوقات ظنوا أنفسهم فيها كما لو كانوا يهربون فوق كوكب آخر. فقد كان منظر العالم حولهم يبدو غير مألوف وغير حقيقي إلى حد بعيد. ولو كانوا يعرفون الزحف الجليدي حول القطبين لحسبوا أنفسهم يقطعون الصحراء المتجمدة هناك دون نهاية! هذا إلى الرطوبة والأمطار التي كانت تجعل الجو لزجاً خانقاً كبردة من الصمغ اللاصق بالاضافة إلى أن الخيل وفرسانها كانوا ينضحون عرقاً، ورائحة العفن تحت الدروع الثقيلة من الحديد تنتشر... والإرهاق يهد الخيل. رحلة الاكتشاف كلها كانت غلاباً مع الصخر والوديان والصقيع!... والمرارة.

زعيم حركة الاكتشاف لهذه البلاد كان فرانسيسكو بيثارو. وكان راعي خنازير في الأصل. ومات عن عمر ناهز المائة وأربع سنوات. قضى شبابه وكهولته مقاتلاً جباراً في الكشوف وقضى أرذل العمر سجيناً في قلعة من أمنع قلاع إسبانيا حيث لايستطيع أعداؤه النيل منه. إنها لعنة البيرو، لم ينج منها إلا الأقلون.

في شباب بيسارو رافق الرجل رحلة تستكشف في البحر شواطىء أمريكا اللاتينية في الغرب على المحيط الهادي. أبحر مع الحملة من أمريكا الوسطى حتى البيرو سنة ١٥٢٤ وعاد ملتهب الخيال بما جمعه من المعلومات عن امبراطورية الانكاس وثرواتها الخيالية هناك على الجبال المسايرة للساحل. وفي سنة ١٥٢٨ وسنة ١٥٢٩ كان في إسبانيا. قابل الملك يعرض مشروعه يكشف البيرو وضمها إلى ممتلكات العرش ووافق الملك الجشع عليه فقناطير الذهب والفضة المتاحة هناك أغلى بكثير من حياة عدة مئات من الرجال هذا إذا هلكوا. في سنة ١٥٣١ كانت الحملة قد أعدت في باناما ونزلت في ميناء تومبيز، جنوبي الاكوادور لتساير الجبال دوماً إلى الجنوب وعلى رأسها بيسارو ذو الإرادة الوحشية واللسان السليط...

في تلك البقاع كانت مملكة الآنكا التي عاشت قروناً مملكة صغيرة قد توسعت قبل قرن من الزمان حتى أصبحت امبراطورية. وامبراطورية واسعة. تمتد من أواسط الاكوادور اليوم إلى أواسط شيلي. لكن هذا الاتساع مع جبروت الملك وعبادة الامبراطور كإله جعلت التنافس على الملك حاداً. أتاهواليا الذي كان الملك في تلك الفترة قضى الوقت الطويل يقاتل أخاه غير الشقيق على العرش حتى استقام له. فسجنه وقتل أولاده وحاشيته. كان المقتول موزع الانتباه بين الغزاة البيض الذين قد يطلون من الشمال وبين قوى أخيه القادمة من الجنوب وحين انتصر أتاهواليا وصار السابا الأكبر الخامس عشر وقدم له السابات (الملوك) الآخرون الأحد عشر فروض الولاء لم يأبه لخطر القادمين. كانت جيوشه جرارة. ولعله حسبهم بالعكس كما في النبوءة القديمة التي تحكي قدوم الإله الأبيض من البحر: فيراكوشا. مع حاشيته من الملائكة - في زعمهم - ويوم أخبر بقدوم حملة بيسارو... رحب بالقادمين هو وشعبه حتى لقد حسبوا الفرسان على خيلهم قطعة واحدة من الحديد. وعاملوهم كأنهم جنس فوق البشر إلى أن كشفت له الحرب هذا الظن المميت!

على أن الناس في البيرو كانوا إذ ذاك مأخوذين بنبوءات ثلاث يقولون

إن حكماء المملكة قدموها للملك بعد أن رأى الناس ثلاث حلقات تطيف بالقمر. قالوا إنها ثلاث مصائب سوف تنتهي بها المملكة فلما وقعت الهزات الأرضية في البلاد وهدمت المعابد والقرى والأدراج الجبلية كانت هذه أولى المصائب. ولما لحقها انتشار وباء الحصبة (الجدري) الذي جلبه الأوربيون معهم اعتبروها المصيبة الثانية وانتظروا الثالثة وهي أخطرها وأدماها: المصيبة التي تنهي المملكة... فكانت هذه المصيبة الكبرى هي حملة بيثارو على أن أحداً من الناس لم يكن ينتظر أن تتمكن قبضة من الرجال لاتجاوز الخمس مائة من إلغاء امبراطورية تقارب مليون كيلومتر٢ ومحو حضارة كاملة مضى على وجودها ونموها عشرة قرون... وفي أقل من سنة!

تعب رجال الحملة منذ الأيام الأولى ثم أرهقوا ثم أنهكوا... ولما يزل الكشف بعيداً جداً عنهم. لم يكونوا يرون في الأفق شيئاً سوى بياض القمم والسكون المرعب. وليس سهلاً أن تحمل عدة الحرب كلها وتسير بها الأسابيع بعد الأسابيع صعداً وهبوطاً عبر الوديان لانهاية لتواليها بما يهدر فيها من الأنهار، وتسلقاً على الصخور التي لم تعبدها بعد قدم. وتأخذك الأمطار تارة والرياح الصقيعية أخرى. إنها أرض الشيطان هذه الأرض. كذا كانوا يقولون. ألم يتعب بيسارو؟ ويرهق؟ وينهك؟ بلى ولكنه هو وحده الذي كان واثقاً من نهاية الكشف كان كلما أقعده الونى تراءت له على البعد كنوز أتاهواليا، ملك العالم ـ كما كانوا يسمونه ـ وابن الشمس وابن الأرباب الذي يأكل في صحاف الفضة والذهب والي قصوره التي بنيت بلبنات من الفضة والذهب استيقظ كالحصان... وتابع برجاله السير! كانت مسيرة يمكن أن تعد أطول سفرة في التاريخ على ظهور الخيل. والسنابك تزلق تارة على الصخر وأخرى في مهاوي الوديان ومنظر الجبال الثلجية في الأفق لايتغير. كما أن ظلمة الغابات والأدغال من حولهم لاتتغير... لم يصلوا بعد إلى الأراضي المسكونة بالإنكاس أهل الذهب وبحيوان اللاما ذلك الجمل الذي له رأس غزال وجسم فرس وفروة ناعمة تزري بالوبر... ويحمل عن ذلك الشعب الجبلي الأثقال. وأخيراً... حين

وصلت الحملة أول بلد كبير في الامبراطورية، وحملقت بعدها في الثروة التي لاتصدق في بلدة كثكو العاصمة كاخاماركا التي تلتمع بالذهب جدراناً وسطوحاً وثمراً، وذهلت أمام كنوز باشاكاماك أيقنت أن الكشف قد تم بنجاح! وبقي أن تلهم الغنيمة! لم تكن لدى أتاهواليا فكرة واضحة عن مقاصد هؤلاء القادمين حتى وصله وهو في كاخاماركا رسول (شاسكي) ينبيء بقدومهم بعد عشرة أشهر من المسير المرهق! أرسل إليهم حذاء مزخرفاً وبعض الأساور كهدية وعربون صداقة لكن الاسبان كانوا أكثر اهتماماً بمنجم الذهب الذي تشكله لهم بلاد أتاهواليا منهم بصداقته أو بهديته التافهة !

في اليوم التالي لوصول بيسارو اصطف في ساحة المدينة النبلاء والكهنة. وجاء أتاهواليا بموكبه الذي يضج بلمعان الجوهر والذهب والزمرد. ألفان من المغنين والراقصين أقاموا الحفل. وحين تقدم قسيس إلى وسط الساحة وطلب من الملك التنصر مع قومه ورفع الكتاب المقدس إلى الملك ارتجفت شفاه أتاهواليا غضباً وقال إنه لايقول لي شيئاً هذا الكتاب. إني لاأسمعه ورمى به إلى الأرض... وتوتر الجو بشدة حين ضرب بيسارو بقنبلة مدوية من مدافعه. وتدافع الاسبان على خيولهم يقتلون الإنكا العزل! وامتلأت الساحة جثثاً وسنابك وسيوفاً يختبط بعضها في بعض! قتل اثنا عشر من النبلاء وهم يحاولون حماية أتاهواليا الذي دافع عنه بيسارو نفسه وأعلن: إنه أسيري! حين جاء الليل كان ثلاثة أو أربعة آلاف من الانكاس قد غدوا أشلاء ممزقة في ساحة البلد. وكان أتاهواليا يعرض على بيسارو أن يفتدي نفسه. وانتهز القائد الإسباني الفرصة وطلب ملء عدة غرف عدة مرات بالذهب!...

بذلك بدا نهب حضارة الآنكا وتدميرها الهمجي. جاءت عصابات الإسبان من مختلف البلاد بالفدية المفروضة: أوعية ذهبية وفضية. أساور وأطواقاً. أقراطاً كؤوساً. تماثيل آلهة. أقنعة وجوه. مقاعد. تماثيل حيوانية للاما وغيره. صواني. قراميد للسطوح... أكواماً جمعوا منها في ساحة كاخاماركا. كانت الصياغة لدى الآنكا من الروعة بحيث كانوا يصنعون من الذهب مقاعد

ينساب منها الماء إلى بحيرة تسبح فيها الطيور وحول النهر رجال يسكبون الماء! وقد كان الآنكا من الرقي بحيث كان لديهم ٢٥ ألف كم من الطرق المرصوفة في الجبال، وجيش كبير بأسلحة يدوية متنوعة ولديهم النسيج القطني الرقيق، والأبنية والمعابد كل حجر فيها ستة أمتار ولهم دينهم الذي يقبل أضاحي البشر... وضاع كل ذلك في الفوضى والنزاعات التي أعقبت الفتح... قام الاسبان في الأيام الأولى بالثروات الخيالية. وسكروا الأيام الطوال ثم أذيب كل ذلك في قضبان حملها الفاتحون الغربيون إلى بلادهم...

أما أتاهوالبا فقد دفع فديته الجشعة فلم يطلق بيسارو سراحه. وحاول الهرب مرة من النافذة العليا في محبسه ففشل وجرحت يده وطلب بيسارو مرة أخرى ملء الغرفة في المحبس ذهباً أيضاً حتى يبلغ الدم ويظهر أن الفدية لم تصل حتى الآن أثر ذلك الدم. فالغرب مازال إلى اليوم يمتص ثروة تلك البلاد نقطة نقطة!.

راهب الأنسولين

العلم لايعطيك بعضه إن لم تعطه كلك. تذكرت هذه الكلمة العربية المأثورة وأنا أتذكر بعض قصص الاكتشافات العلمية. العلم كالمرأة غيور لايقبل أن يشاركه أحد في عشاقه! نوع من الهوس النبيل يسكن بعض الناس ويمنعهم أن يروا أي شيء غيره. أرأيت كيف يتصرف الزهاد أو الرهبان عن دنيا الناس فهم في دنياهم الخاصة غارقون؟ قد يكون كل صاحب هوى كذلك لايرى غير هواه. ولكن القلائل أولئك الذين. تنغلق أمامهم كل نوافذ الدنيا أو يغلقونها على أنفسهم فلايبقون إلا على نافذة واحدة هي كل الدنيا... وهي أيضاً الجنة التي وعد المتقون.

من هذا النوع من الناس كان فريدريك بانتنغ مكتشف الإنسولين علاج مرض السكر!... لم ينفرد وحده بهذا الاكتشاف بلى شاركه آخرون. فالعلم اليوم جماعي يبدؤه فريق ويتممه فرقاء آخرون حتى يكمل. ولكن بانتنغ يبقى الاسم الأول في فريقه. يبقى راهب الإنسولين الأول... وبامتياز.

كان شاباً يدرس الطب حين أعلنت الحرب العالمية الأولى. وجند مع من جند للعمل الحربي وهو بعد في السنة الرابعة فاشتغل. في مستشفيات الحرب. وكلها أعمال جراحية. وحين انتهت الحرب كان في رتبة نقيب. وعلى صدره وسام. وفي جسده جروح من قنبلة نسفت المستشفى الذي كان يعمل به. وقد اعتاد منظر الاشلاء، وتعبئة الجماجم بالأكياس ونقل الجثث معجونة بالدم. وعاد إلى أسرته في اونتاريو، بكندا ليجد عملاً ويتأقلم مع حياة السلم ويتزوج فقد كانت له من قبل خطيبة تنتظره وتلح في تحديد موعد الزواج... لكن عالم القنابل والجثث المبعثرة والخنادق والموت كان مايزال يملأ نفسه واستطاعت أسرته التي كانت على شيء من اليسار والنبل أن تشتري له سيارة وتجد له عملاً

في بعض مستشفيات الأطفال فلم يفلح... كان يشعر كأنما يعيش في شرنقة حريرية بعد الذي عرفه من مآسي النفس البشرية ورعب الحياة.

عاد باتنتغ فافتتح عيادة خاصة ولكنه فشل... وكان يقضي الوقت في تشذيب حديقته أو إصلاح سيارته. وأتاه يوماً زائر جامعي يطلب إليه أن يكون طبيباً لبعض الوقت. ومحاضراً في جامعة تورنتو. لم يكن باتنتغ قد عرف التدريس من قبل ولا كانت لديه أدنى فكرة عن مرض السكر... بل لم يكن يعرف نطق اسمه الطبي فكان يدرس في الكتب ويكرر ما يحفظ على الطلاب... وعرف، من الكتب دوماً، أن مرض السكر يوهن القوى. ينقص الوزن. يؤدي إلى الإغماء يزيد في البول السكري. يؤذي النظر وقد يؤدي إلى العمى... وإلى الموت أيضاً!...

العلماء السابقون عرفوا أن الأمر يتعلق بنقص الوظيفة في غدة كبيرة تحت المعدة تدعى البنكرياس. وكانوا يعالجون المصاب بالصوم وتقنين الغذاء وينفضون اليد من الحالات المتقدمة... الموت هو النهاية الحتمية. أبرزهم مثل لنغرهانس شرّح هذه الغدة وبين أنها تشبه عنقود عنب كل حبة فيه مثقوبة تفرز مادة سائلة تعمل على إحراق السكر والنشويات وتحويلها طاقة في الدم. أبرع العلماء قبل باتنتغ في هذا المجال وهما ليرين ومانكوسكي كانا منذ ثلاثين سنة قد شقا هذه الغدة وحاولا معرفة أسرارها عبثاً، وحين اكتشف لنغرهانس حبها العنقودي سماها العلماء باسمه: جزر لنغرهانس! ولكن كيف السبيل إلى تحريكها للقيام بوظيفتها كاملة؟

المصابون بهذا الداء كثيرون جداً. والعلم في ذلك الوقت لايصف لهم إلا العلاج السلبي. لاشيء آخر يقدمه... والباب أمامهم موصد. لامخرج إلا إلى المقبرة! كان معروفاً أنه الموت البطيء وارتبط في جبين باتنتغ منظر المتهاوين في الحرب! بمنظر ضحايا السكر كلهم للموت وأطال التفكير.

وكما أدى سقوط تفاحة أمام العالم نيوتن إلى اكتشاف قانون الجاذبية العام كذلك استيقظ باتنتغ من فراشه ذات يوم على فكرة بسيطة: عزل

الافراز الداخلي للجريرات الفاسدة في البانكرياس. وتصور...

لماذا لانربط هذه البانكرياس من عنقها حتى تجف ونأخذ عصارتها فنلقح به المريض السكري؟ إن أحداً لم يجرب ذلك من قبل فلماذا لانجرب؟

استهوته الفكرة فأتى بها إلى ماكلاود رئيس قسم علم وظائف الأعضاء في جامعة تورنتو التي يعمل بها. إنه كبير الاختصاصيين واستقبلها ماكلاود بالرفض. كما استقبل باتنتغ نفسه بالهزء واللامبالاة... هذا الشاب المتردد غير المؤهل تماماً يريد أن يتحدى عظام الأطباء الباحثين؟ لكنه، أمام الإلحاح قبل أن يعطيه مخبراً مهملاً في الجامعة ومساعدين يعاونانه، من طلاب السنة الرابعة في الطب هما تشارلز بسدتي وكلارك نوبل.

ونسى الجميع هناك في المخبر بين الأنابيب والتجارب والكلاب!

انصرف بانتنغ إلى فكرته لايرى غيرها. أهمل كل شيء حتى خطيبته التي رمت له في النهاية خاتم الخطوبة. صار المختبر معبده وصارت التجربة التي يحاولها هوساً ملك عليه أكله وشربه ودنياه. كان كالسائر في الصحراء يلاحق السراب. وانفصل عنه أحد مساعديه فجاءه ماكلاود بمساعد اسمه كولب يحسن عزل المادة اللازمة من الأوشاب الآخرى... واستمرت التجارب والباحثون بين مد وجزر. النتائج كانت هزيلة. وحين ذهب بانتنغ إلى مؤتمر في جامعة ييل يعرضها تولى ماكلاود رئيس القسم تلخيصها فلما وصل المنصة لم يجد ما يضيفه إلى ذلك فاحتبس لسانه وانسحب! ورجع ماكلاود منكسراً مخذولاً! مع ذلك فقد كان من الواجب تجربة الدواء الجديد على البشر. الكثيرون يتشككون به وتبرع أشهر اختصاصي بذلك: الدكتور كمبل. الجميع انتظروا على الباب قلقين يترقبون النتيجة. إنها أول حقنة من السائل المكتشف تعطى لبشر! وكانت النتيجة هبوطاً قليلاً في نسبة السكر في الدم... لاأكثر! ماكلاود وحده هو الذي أحس بالحرج والتورط لم يقم في العمل كله بأي جهد. ولكنه لكثرة ما افتخر به وانتظر منه أحس بقسوة الفشل والتورط الذي قد يذهب بسمعته.

كانت المادة التي وجدها الباحثون الثلاثة بحاجة إلى المزيد من النقاء

وقد تولاه بخبرته المساعد المختص كولب الذي جاءهم ذات ليلة يهتز فرحاً: لقد نجحت! ورقص الثلاثة للنجاح. إنه سكر ولاخمر. لكنه حين امتنع عن شرح كيفية النجاح لصاحبيه بحجة أنه من اكتشافه الخاص ونجاحه وسره ثار جنون بانتنغ وتبادل معه الشتائم: هذا الانهزامي الجبان! الذي يريد تسجيل الكشف باسمه!

ويئس بانتنغ من صاحبيه. لسوف أمارس الطب في القطب لابين هذا الناس لأنال التقدير الذي استحق وأتزوج وأرتاح. كذلك قال. وتبا للبانكرياس الملعونة ومن يعمل عليها! ظنها مؤامرة عليه لإقصائه عن المستشفى! على أن المساعدين بقيا يعملان وطلب رئيس القسم تحديد مراحل التجربة بالتفصيل ومركباتها فابلس كولب. لقد نسي تدوين ملاحظاته كاملة فعاد من جديد للعمل... وذات يوم دخل بست مساعد بانتنغ عليه بهدية عيد ميلاده وطلب منه أن يفتحها فإذا بها زجاجة فيها المصل المصفى النقي لقد اكتشفه بست أخيراً أما رئيس القسم ماكلاود فأعطاه الاسم إنسولين المشتق من كلمة جزيرة اللاتينية...

لم يكن لماكلاود أي دور في هذا الكشف. كان يتحرق ليكون ذا كشف وشهرة ولكنه فشل حتى الآن. وكم مرة أحرج حين كان يسأل عن التجارب وسيرها؟ وكم من مرة هم بطرد بانتنغ عند فشل التجارب ولام نفسه على تورطه في هذه القضية كلها. ولكنه أخيراً وثق منها حين وجد أن ابنة أحد السياسيين الكبار المصابة بالداء المزمن قد أفادت منه ونزلت نسبة السكر في دمها من ٥٢٪ إلى ١٢٪.

وعلى الرغم من أن الكثيرين من الأطباء كانوا ينتظرون أن تمر السنوات على الدواء ليصبح مقبولاً فقد كتب ماكلاود بذلك إلى كل مكان! كان نموذج العالم المتسلق. وفي سنة ١٩٢٣ منحت جائزة نوبل لبانتنغ وماكلاود معه... رقص بانتنغ أولاً في معمله لكنه حين علم أن ماكلاود هو الذي يقاسمه الجائزة ثار. أهذا الفضولي يختطف النصر وهو من حق بست شريكه في العمل.

وبكل اندفاع العالم المخلص بعث يعلن أن هذا الرجل الذي شاركه في سهر الليالي وتحمل صدمات الفشل فيها يستحق نصف جائزته وبعث بها إليه. حين واجه الصحفيون ماكلاود بمبادرة بانتنغ تلعثم وقال: إنه بدوره يعلن أن المساعد كولب له حق أيضاً في نصف جائزته أيضاً... المشاركة في هذا العصر أساس العلم وجوهره... حين سقطت به الطائرة سنة ١٩٤٠ كانت التجربة الوحيدة المرة في حياته هي تجربته مع ماكلاود المتسلق... هل كان في وسعه أن ينساها؟

اسم هنري هدسن يكتب اليوم وإلى الأبد على خرائط أمريكا الشمالية شمال كندا اسماً لعدة مدن وبلدان واسماً لنهر من أهم الأنهار واسماً لخليج يمتد سطحه المائي مليوناً ونصف المليون من الكيلومترات المربعة فمن هو هذا المحظوظ الكبير؟ لو عرفت القصة عرفت أنه صاحب المأساة الكبيرة. لقد غاب عن الوجود. لايدري أحد كيف غاب؟ ولاأين غاب؟

القصة في مطلعها عادية هي قصة أي اكتشاف بحري. السفينة التي سميت (الاكتشاف) خرجت في مثل هذه الأيام من سنة ١٦١٠ (١٧ ابريل) من مرفأ لندن وعليها ٢٢ رجلاً بقيادة هدسن الذي كلف قبل صاحبه كوك بزمن أن يكتشف الممر في شمال أمريكا إلى بلاد الصين!. وبعد سبعة وعشرين شهراً شاهدت سفينة صيد ايرلندية في عرض البحر المحيط قرب ايرلندة المركب المسمى بالاكتشاف يتقدم ببطء وتعب نحو الشرق وعليه ثمانية أشخاص جياع وفي الرمق الأخير يقودهم بحار عادي حتى بلغوا المرفأ... قد نعرف قصة الناجين منهم. ولكن ما قصة الهالكين؟ وما الذي جرى خلال الأشهر السبعة والعشرين؟

السفينة أبحرت من شرق بريطانيا صعداً إلى الشمال ثم اتجهت إلى الغرب. اجتازت بعد الأسابيع الثلاثة الأولى جزيرة ايسلندة إلى جمديات غرينلادة وبدأت متاعبها حين حاصرتها الرياح الشديدة البرد وأعماها الضباب واعترضتها الجمديات العائمة... وزاد في المشكلة أن قربها من مغنطيسية القطب الشمالي شل البوصلة فيها... فما تهتدى إلى درب! لكنها ظلت تصعد نحو الشمال الغربي حتى قاربت دائرة القطب وسايرتها فترة قبل أن تنعطف جنوباً لتدخل بين جزيرتين من ممر واسع تغطيه الثلوج مأهول بعشرات الألوف من عصافير البحر، والطيور المهاجرة على الجانبين. ريشها الملون بالسمرة أو بالسواد كان يبعث الكآبة وإن كان مليئاً بالحركة ورفيف الأجنحة...

وانفتح بعد الممر بحر واسع لم يكن أحد يعرف بعد أنه مجرد خليج مغلق وأنه سوف يسمى باسم قائد هذه السفينة التي تدخله لأول مرة وأن سعته تزيد مساحة الكويت! بعد ثلاثة أسابيع من الإبحار والبحث والمرور في المصبات المستنقعية للأنهر تأكد لقائد السفينة العمياء أنه في خليج مغلق...

لكنه رفض مع ذلك طلبات ضباطه وملاحيه بالعودة. رفض العودة خائباً. صمم في عناد أن يبقى في حين كان باقي طاقم السفينة يخشى أن يحاصره الشتاء وهو في ذلك البحر المغلق ويبدأ معه لهاث البخار وصقيع الأطراف والتخبط في الضباب!

وتحول ضيق البحارة إلى توتر شديد. وصارحه معاونه جويه **Juet** فأقاله واستبدل به ملاحاً قليل الخبرة أو هكذا قال الناجون من أهل السفينة دفاعاً عن أنفسهم! كما أنزل رتبة رئيس الملاحين وبدل به ملاحاً أشدّ جهلاً بها. ووجدت السفينة نفسها في تلك اللحظات الحرجة تقاد دون خبرة في حين شكل المعزولون نواة العداء في صف البحارة الذين كان ثلاثة أرباعهم في صفهم بسبب رغبتهم في العودة ويقينهم أن العناد عبث ضائع والشتاء يقترب قفزاً مع الأيام.

ظل هدسن يقاوم رغبة ملاحيه حتى تجمد الممر الضيق الذي عبر منه. صار قطعة من البر. بعد عشرة أيام كانت السفينة نفسها مشلولة الحركة بين الجمديات فمن أين تفلت بين هذه الصخور المائية؟ ولم يكن لديه من المؤن ما يكفي طاقم السفينة للربيع القادم فأعلن للبحارة تقنين الطعام. ومهما يكن هذا القرار طبيعياً، حكيماً منطقياً فقد أثار الحفائظ... والنقمة... على أن هذا كان أول نذر الشر على السفينة الملعونة! وسوف تتلوه سلسلة من النذر!

مات مدفعي السفينة وأعقب ذلك خصومات على اقتسام ثروته المحدودة وكان من نتيجة ذلك أن انضم إلى الناقمين بعض البحارة ثم رفض نجار السفينة أوامر القائد علناً... لن يكمل زرع الأعمدة على البر لتكوين مأوى

لسجناء الجليد! ومر الشتاء بمرارة اليأس على الملاحين وزاد الرعب وزاد بعد في ظهور الاسخربوط بين ظهرانيهم... فلهذا المرض له سمعة الموت بين البحارة...

لم يكن الربيع سنة ١٦١١ قد بدأ حين نجح بعضهم في اصطياد بعض العصافير والضفادع والطيور المهاجرة ليجدوا فيها الطعام الطازج. وحين ذاب بعض الماء عمدوا إلى الصيد بالزوارق...

ولست تدري بعد هذا أي ذنب ارتكبه مساعد القائد فعزله وعين بدلاً عنه ملاحاً كامل الجهل بالملاحة فانضم هذا المساعد إلى قائمة الناقمين، وكان الجميع على أي حال يظنون أن الشتاء الرهيب الذين قضوه كان كافياً لإقناع هدسن بالعودة فإذا به يأمر بالإبحار غرباً في المياه المجنونة المجهولة... أين يقودنا هذا المهووس؟ كانوا على حافة الإفلاس المطلق من المؤن وتضامن معهم حتى أقرب المعاونين للقائد. ويجب في رأيهم أن يتصرفوا قبل وقوع الكارثة. ولو أن قوانين البحار تعاقب المتمرد بالاعدام! اختاروا الخلاص من القائد والموت الآجل على الموت العاجل الذي يرونه كالغربان السوداء يحوم حولهم.

في ليلة ٢٢ يونيو اتفق الناقمون. في الصباح حين قرع صاحب المطبخ على قعر حلته إيذاناً بالافطار كانت هذه لحظة الصفر التي اتفقوا عليها. استولوا على السفينة. لم يبق بجانب هدسن سوى ابنه الذي كان يرافقه وملاح واحد! وتشاور العصاة طويلاً قبل أن ينزلوا قارباً إلى البحر عليه هؤلاء الثلاثة. وصحا ضمير أحد الملاحين فأنزلوه معهم كما أنزلوا ملاحين مريضين والغني في الحسابات... وفي لحظة درامية صاح النجار أنه بجانب هدسن فأنزلوه بدوره آخذاً معه عدته... أنزلوا ثمانية من الموالين. وصاح النجار بزعماء المؤامرة الثلاث: إنكم ميتون! بعد قليل كانت السفينة تبتعد تاركة الثمانية لمصيرهم الأسود على البر... لم يرهم بعد ذلك أحد!...

على طريق العودة حلت اللعنة بالسفينة مرت ببعض أراضي الاسكيمو ولست تدري ما جرى حين نزل بعض رجالها يساومونهم على بعض الطعام. جرح قائد الزورق الجرح القاتل في حين كانت السهام تأخذ رفاقه وهم هاربون.

كانت الحصيلة جرح اثنين آخرين ومقتل الثالث!... ثم مات الجريحان الآخران خلال أيام... لم يبق على ظهر السفينة الملعونة سوى تسعة رجال! واضطر هؤلاء إلى أكل عظام العصافير المقلية بالشمع، وبالطحالب وريش الطيور يحرقونه ويسلقونه... ومات آخر المتآمرين الثلاثة والسفينة ماتزال على ظهر الموج! نبؤة النجار قد تحققت كاملة...

حين شاهدت سفينة الصيد الايرلندية سفينة الاكتشاف تجر نفسها جراً على الماء. تزحف. تضطرب في السير حول جزيرة غروئنلند، أعطتها بعض المؤن. كان قد مضى على خروجها في رحلة الاكتشاف الفاشلة سنة وستة أشهر! وكان آخر ربابنتها في العودة ملاح عادي مع سبعة ملاحين وهي التي تزن ٥٥ طناً!

ووصلت السفينة أخيراً إلى انكلترا وإلى لندن وكان على باقي الملاحين فيهم تقديم تقريرهم إلى ممولي الرحلة... وقد ادعوا فيه أن الممر اكتشف فعلاً في الشمال الغربي وأن هدسن، مع الأسف، لم يستطع مع بعض الملاحين قبول فكرة العودة فبقوا هناك. وكانت الكذبة واضحة لدرجة لم يصدقهم فيها أحد. وكان رأي السلطات البحرية أن الجميع يجب أن يذهبوا إلى المشنقة! ولكن... إذا شنقوا خسرت البحرية البريطانية من يعرف الممر إلى الشرق الأقصى من الغرب. وحدهم هؤلاء يعرفونه! وكيف يشنقون ومعهم السر وما يلحق بمعرفته من الثروات؟

لهذا سارت عجلات العدالة على مهل، ودون قرار حاسم. لم يصدر القرار إلا سنة ١٦١٨ بعد سبع سنوات.

في أثناء ذلك هرب اثنان من المتهمين. ملاحان آخران حقق معهما ثم أطلقا.

الأربعة الباقون مثلوا أمام المحكمة البحرية متهمين بترك قائد السفينة ورفاقه الثمانية في المجاهل دون مؤونة أو ملابس وهي جريمة عقوبتها الإعدام... ولكن كيف السبيل إلى تقديم الأدلة الدافعة على هذا العمل الرهيب؟ السفر

إلى هناك والبحث عن المفقودين قد يقتضي السنين! والمجرمون الأساسيون ماتوا جميعاً. وملف القضية لايقدم سوى الظنون دون أدلة حاسمة!

وأعلن الحكم!... كان ببراءة المتهمين! القضاء أخذ حقه رمزياً فقط... وضاع هدسن ورفاقه شمال كندا الثلجي هدراً. بلى! أرسلت بعثة تبحث سنة ١٦١٢ عن المتروكين ولكنها لم تجد شيئاً.وفي سنة ١٦٣١ ، بعد عشرين سنة من العصيان ذهب مكتشف آخر اسمه توماس جيمس ووقف عند الموقع الذي كان هدسن قد توقف عنده عدة شهور واكتشف في بعض الجزر الأعمدة التي زرعها نجار السفينة الملعونة: الاكتشاف كان أول الأدلة ولكنه لم يكملها... بقيت هذه الأعمدة الخشبية هي الشاهد الوحيد على مأساة هدسن... ولكن هل ينطق الخشب؟

الحظ أعمى... مرتين

الحظ أعمى. كذلك يقولون ولكنه في حديث اليوم كان أعمى مرتين: مرة في المكتشف الذي جاءه مجد الاكتشاف دون جهد، وعلى طبق من فضة. ومرة أخرى في المكتشف الذي صار حديث الناس بذهبه وباسمه،مع أنه من أصغر أمثاله عمراً وثروة وأقلهم أعمالاً تذكر... في التاريخ... ولكن الحظ الأعمى في الحالتين! والحديث يتعلق بالآثار الفرعونية في مصر.

ظل الأثري الأمريكي تيودور ديفس يبحث سبع سنوات (مابين ١٩٠٣ ـ ١٩٠٩) عن توت عنخ آمون في وادي الملوك، غربي مجرى النيل تجاه بلدة الأقصر. وجد بعض الحاجات باسمه كما وجد ستة عشر مدفناً ولكنه لم يجد مدفن هذا الملك الذي مات في مطلع الفتوة. الأثري الآخر هواردكارتر ظل ستة مواسم يحفر ليجد المدفن... وعبثاً ما حفر هو نفسه يقول «لم نجد شيئاً». إن حفرية واحدة تكفي لتبين كم كنا خائبين . أيقنا بأننا غلبنا على أمرنا وأعددنا العدة لمغادرة الوادي وتجربة حظنا في منطقة أخرى. وماكدنا نضرب بمعاولنا في آخر حفرية، وجهد يائس حتى قمنا بكشف تجاوز أبعد الأحلام التي كنا نحلم بها غرابة وروعة...»

هذا الكشف لم يأت نتيجة الحفريات المختلفة ولكنه جاء بمحض المصادفة في ضربة حظ لاأكثر. كان بعض الحراس في الوادي المملوء بالمقابر، وادي الملوك، يحفر ليقيم خيمته فوجد جانباً من جدار صغير مرصوف كأنه درجة تحت قبر آخر فارغ. في الصباح أخبر كارتر بما وجد فتحقق أنها درجة من سلم يسير عمقاً... كان ذلك في ٤ نوفمبر سنة ١٩٢٢ ! والوادي الصحراوي كله غارق في الصمت المميت إلا من أصداء العاملين في الحفر وهم قبضة عمال معفرين! تولى كارتر الحفر بعد ذلك فإذا به أمام سلم حجري بعرض ١٦٠ سنتمتراً وعمق ٤ أمتار. بحث كارتر في مثل من سكنته الحمى لمعرفة هوية

صاحب السلم فلم يجد أي اسم أو أثر. كل ماوجده في نهاية السلم هو باب مغلق عليه الأختام المعتادة للمدافن الملكية: وهي تمثل الرب آنوبيس المهيمن على الأقواس التسعة. لم يكن يدري كارتر أنه مع صاحبه ممول الحفريات كارنافون سيصبحان بالحظ وحده أشهر مكتشفي الآثار المصرية!

ثقب كارتر الباب الحجري. بمقدار ما يدخل شعلة كهربائية فوجد وراءه ممراً مملؤاً بالأتربة والحجارة. كان هذا كل ماتبينه في الظلام. إنها أول العقبات أمام أي فضولي أو سارق. كما شاهد آثار فتحتين واضحتين. لاشك أن القبر فتح بعد إغلاقه! وكانت لحظة هزته هزاً. أي شيء وراء هذا الممر أي شيء لابد أن يكون هاماً وسيطر كارتر على أعصابه كلها قبل أن يمضي قدماً في التنقيب، كان عليه أن يبلغ ممول الحفريات اللورد كارنا فون بما وجد... أخيراً.

سيادة اللورد كان في لندن وما وصلته برقية الأثري الذي تركه مع الرمال في مصر حتى كان خلال أسبوعين في الاسكندرية. في تلك الأثناء كان كارتر قد وجد في أسفل الباب اسم صاحب المقبرة: توت عنخ آمون!... إذن فهو أمام قبر الملك الثاني عشر من ملوك الأسرة الفرعونية الثامنة عشرة! ومن المرجح جداً أن أحد أبناء الفرعون أمنحوتب الثالث من إحدى زوجاته الثانويات. كان في العاشرة من العمر حين تولى العرش ومات ولم يكمل العشرين، نقلة في الدين والمكان.

إنه طفل صغير حكم لفترة قصيرة. ولعب به رجال البلاط والكهنة: كان أول أمره متحمساً للعقيدة الجديدة التي أتى بها أخناتون تجعل العبادة للشمس، الإله الواحد الأحد. حتى لقد بدأ حياته باسم توت عنخ آمون وعاش في مدينة حت آتون (وهي تل العمارنة اليوم) بجانب نفرتيتي أرملة آمنحوتب الرابع. الذي سبقه! لكنه ما لبث أن اتفق مع كهنة طيبة واتفقت حاشيته معهم فانتقل إلى تلك المدينة واتخذ اسم توت عنخ آمون وبقي ثماني سنوات.

ولم يكن قد جاوز التاسعة عشرة من العمر حين توفي! وكان ذلك سنة ١٣٣٧ ق.م.

هذه هي قصة ذلك الملك. الحظ وحده مرة أخرى هو الذي جعل هذا الاسم أشهر أسماء الفراعنة في التاريخ.

الدوي الذي صنعه الكشف عن قبره في العالم. الكنوز الذهبية الرائعة في مقبرته الصغيرة التي اكتشفت. عدم اكتشاف مثيل لها حتى الآن لأن كل القبور التي كشفت من قبل ومن بعد، كان قد سطا عليها اللصوص، كل ذلك أعطى هذا الاسم من الرنين ماجعله يغطي ويختصر، في أذهان الكثيرين كل الفراعنة صار يمثل ٣٢ أسرة مالكة دام حكمها في مصر قرابة ٢٧٠٠ سنة.

بعد أيام من وصول كارنافون إلى الاسكندرية كان مع صاحبه كارتر أمام باب المقبرة في وادي الملوك ينتظران فراغ العمال من تنظيف الممر المائل الذي يمتد سبعة أمتار ونصف المتر هبوطاً. وكان اليوم التالي يوم الأيام وأروع اللحظات التي عشتها على حد قول كارتر الذي أضاف: من المؤكد أنى لاآمل في حياتي أن أعرف يوماً مثله. في مستوى ينخفض عشرة أمتار عن الباب الأول قام باب آخر يزيد على المتر في السمك، كالأول، وعليه الأختام واعتقد الأثريان أنهما أمام مخبأ لامقبرة وثقب الباب على مهل وفي حذر يائس بطيء بمقدار ما يسمح بالنظر، وبيد ترتجف أدخل كارتر شمعة تبدد الظلام الكثيف لم ير سوى غرفة فارغة...

كان اللورد كارنافون مع زوجته وضيف آخر ينتظرون بفارغ الصبر كلمة. ليس سوى الظلام وشيء من الهواء الساخن يلعب بضوء الشمعة... ولكن ما اعتادت عينا كارتر على الظلمة حين تبين، على مهل في العتمة سواد بعض التماثيل الحيوانية التماع الذهب في كل مكان كالنجوم .

في تلك اللحظات التي بدت لكارنافون وأصحابه كأنها بطول الأبدية كان كارنافون معقود اللسان من الدهشة وحين صاح به اللورد كارنافون بنفاذ صبر:

ـ هل ترى شيئاً ؟ لم يستطع أن يقول سوى: نعم أشياء رائعة!

ووسعت الفتحة ليرى كارنافون وأصحابه، على ضوء مصباح كهربائي خرقت أشعته ظلام الغرفة المتكاثف كقطعة منسية من الليل، منذ ثلاثة آلاف

سنة منظراً بهت له الجميع. إنه خليط من الروع والفرح وهزة الجنون! كان ثم أسرة الدفن على جوانبها تماثيل حيوانية وفي وسطها صناديق ثمينة ومقاعد على الجوانب مكدسّ بعضها فوق بعض وتماثيل ذهبية ومن خشب الأبنوس وأدوات موسيقية ولقى كان العاج والفضة والذهب تدخل في تزيينها وزهور جافة... وأثاث مختلف ألوانه في غرفة منقورة في الصخر طولها ثمانية أمتار وعرضها نصف ذلك ويعد الأثاث ١٧١ قطعة.

لم يكن هذا كله في الواقع سوى أول الكشف وطلائعه. أما الكشف الحقيقي فجاء بعد ذلك. وجدوا باباً يواجههم وفتحوه فإذا الأثاث فيه كما في الغرفة الأولى ملقي كما لو ترك على عجل وسرعة. لم تترك الحماسة المجنونة وقتاً للمكتشفين كي يفكروا، في غمرة العمل، ماذا يفعلون؟ كانوا يريدون، في موسم واحد من الحفر أن يكتشفوا كل شيء، وأن يخرجوه دون معالجة مسبقة له... وأتلفوا منه الكثير الكثير.

عمت أنباء الاكتشاف العالم خلال أيام واهتزله الأثريون وغير الأثريين. إنها كنوز الفراعنة وبعد أن أقيم الافتتاح الرسمي بقليل بدأ فتح الباب الجانبي الذي لاحظوا وجوده أثناء جرد المكتشفات.

وهنا كانت المفاجأة الكبرى... كأنما هز الجميع تيار كهربائي من الروعة، تألق الذهب ضج تحت الأنوار الكاشفة حين أرجف الحاضرين. قاعة من الخشب المذهب جدرانها مزينة بالرسوم فيها ثلاثة أقسام وفي صدرها تابوت الملك أخناتون المثلث، ثلاث توابيت بعضها يحضن بعضاً. الأول من الكتان المحلى بالذهب وفي موضع الرأس والوجه قناع من الذهب مع كل شارات الملك المرصعة بالجوهرات. غنى. روعة. أناقة. جمال.. لامثيل له... هذه هي الكلمات التي استعملت لوصف هذا الكنز الذي أطلق الاحلام على مداها... إنها مالايحصى من آنق وأثمن المكتشفات. ١١١٠ كغ كان وزن ما في التابوت وحده من الذهب الخالص.

الناس اليوم مفتونون بهذا الكنز الأثري العظيم، الذي دار الدنيا يستثير

إعجابها من اليابان إلى باريس إلى نيويورك. الكشف ينسبونه إلى كارتر وكارنافون ولولا حارس الوادي هل كان هذا الكشف أبدأ؟ والاسم الأعظم للفراعنة اجتمع في توت عنخ آمون. هل كان هذا الفتى يحلم في أقصى أحلامه بهذا المجد؟ ألم نقل في البدء إن الحظ أعمى مرتين؟

يوم تينوشتيتلان

لعله مامن لحظة شلت الخيال والألسن كتلك اللحظة التي اكتشف فيها الضابط الإسباني هرناندو كورتيز مدينة المكسيك الأولى خلال سنة ١٥١٩ . بهتت الجماعة التي معه. تدورت عيونها وهي تنظر. عقل الصمت المطلق ألسنتها بعد أصداء السنابك أسابيع في الشعاب الجبلية والوعر.

كتب واحد منها: «إنها أعظم لحظة خيالية في جميع عصور التاريخ» وكتب ثان وهو يطل من خلال الجبال والتلال. «كان كثيرون منا يبدون في شك: أنحن أيقاظ أم نيام»؟ وكتب ثالث في مذكراته وهو يرى إلى الأبراج والمعابد الهائلة المشيدة بالجير والحجارة فوق الماء تتمرى فيه كأنها مدينة أخرى تحت صفحته: لم يشاهد إنسان لم يسمع لم يحلم بشيء يشبه المنظر الذي بدا لنا ذلك اليوم! كل غرائز الجماعة الوحشية المتحفزة ألجمت فجاة فيهم.

كان ذلك أوائل أيام الاكتشافات في أمريكا. سمع الاسبان الذين كانوا يوغلون في أمريكا الوسطى وجزرها وهم في كوبا أن هناك إلى الغرب عبر البحر مدينة عجيبة غنية وملكا عظيماً فتواصوا بكشف هذا الملك المجهول. واتجهوا وراء هذا الذي سمعوه إلى الغرب. لم ينتظروا أن يلاقوا مثل الذي لاقوا من الشقاء في الوصول. كما لم ينتظروا أن يروا مثل مارأوا في النهاية من الروعة. كانوا يحسبون أنهم ملاقو جماعة هندية بدائية وقرى متواضعة تنتثر فيها الأكواخ من الأغصان أو بعض البيوت فإذا هم يطلون، ولما يدخلوا بعد، في روع يبهتون!

زعيم الجماعة هرناندو كورتيز ضابط إسباني تمرس بالتجارب وعانى المر بين الأسنة والخيل حتى غدا قطعة من صخر. وجماعة أشداء عليهم الدروع والخوذات من الفولاذ وفي صدورهم ما هو أقوى منه. وبأيديهم البنادق لايملكها الهنود، والمدافع تجرها الخيل صعدا. كانوا لايزيدون، حين أبحروا من كوبا على

٥٠٨ جنود ومائة بحار و١٦ من الخيل و١٤ مدفعاً. كانوا يحسبونها نزهة حين انسابت بهم السفن الإحدى عشرة فوق الماء إلى المكسيك. وأحلام الذهب والجوهر تتراءى لهم وراء الماء. وإنما بدأت الصعاب منذ نزلوا البر وأحرقوا السفن التي جاؤوا عليها. كانوا قد اختاروا نهائياً المدينة التي يحلمون بها على الأرض ويسمعون وإن لم يروها بعد. كان عليهم اجتياز الجبال الثلجية وقد يعلو بعضها إلى ٥٥٠٠ متر بوديانها ومهاويها وصقيع الدروب وظلمة الأدغال للوصول إلى تينوشتيتلان في قلب المكسيك. كل ما يعرفون عنها هو الاسم فقط.

قضت حملة الاكتشاف أسابيع وهي تتقلب على الصخور وفي الغابات الكثيفة على الدروب. وعرفت الجوع المدمر والأدغال كأنها الليل، لم يكن يخطر في بال هذه الزمرة المنهكة أن كشوفهم التي يكتشفون سوف تكون السبب في ثورة اقتصادية واجتماعية تغير نمط الحياة التغيير الجذري في أوروبا وفي ممتلكاتها الجديدة وراء البحار... ولكنهم كانوا يسيرون!... يزلق بعضهم في الممرات الوعرة، ويهوى بعض في الوديان لاتدري أيان مستقره السحيق؟ وبعض تلفه الأنهار لفاً فالتيار يبديه ثم يخفيه ثم يبديه ويخفيه كأنما هو يودع الدنيا قبل أن يرميه جثة على بعض الشواطىء! هذا إلى القبائل الوحشية وسهامها تتخطف الرجال في الغابات وصنوف الأفاعي وزنين الحشرات وهمهمة الوحش. وكم من مرة طلب رفاق كورتيز العودة يائسين ولكنه لم يكن يسمع سوى نداء الظفر بأرض جديدة يضيفها إلى المملكة الاسبانية وبالثروات يضيفها إلى جيبه وجيوب رفاقه. أحد عشر أسبوعاً استمر السير المرعب!

وأخيراً عبرت الزمرة ممراً جبلياً بين اثنين من جبال النار ثم انحدرت إلى غابة كثيفة ظهر بعدها عبر التلال أفق المدينة: تينوشتيتلان! إنهم في قلب امبراطورية الآزتيك سكان المكسيك الأولين.

استقبلتهم المواكب بترحاب يشبه العبادة. كان هؤلاء الآزتيك بدورهم ينتظرون آلهة بيضاء تعبر إليهم من المشرق. على السطوح والأشجار انتشر الناس وأتى الملك في ثيابه المثقلة بالجواهر والذهب يلاقيهم وتهامس الشعب الفرح:

إنه الملك مكتزوما يخرج بنفسه وخفض الجميع أبصارهم لأنه ليس لأحد أن ينظر إلى الملك. وبقيت جماعة كورتيز يتلفت بعضها إلى بعض وعيونها تكاد تستدير من الدهشة! إنهم في طريق طويل مستقيم يحفه الماء ضمن بحيرة واسعة والأبنية في وسطها ومن حولها المدينة جزيرة كاملة رائعة.

تبادل كورتيز هدايا العقود مع الملك في قصره. ثم نزل المدينة العجيبة ليفاجأ بأسطول من السفن المزينة بألوان الزهور والعطر ينتظر. إنهم نبلاء المدينة يحملون الهدايا وعقود الذهب، وأثمن المنسوجات. ثم كانت مفاجأة كورتيز الكبرى حين انحنى مكتزوما على ضيفه قائلاً: سيدي هل أتيت لاستلام عرشك؟ الشعب طوع يدك وتحت أمرك وحمايتك! مرحباً بك في مملكتك يا سيدي!

لم يصدق كورتيز ماتسمعه أذناه ولكن حين رأى أنه حتى الخيل التي وصلت معه تعامل كمخلوقات سماوية وتفرش لها أسرة الزهور أدرك مدى خطورة موقفه لو اكتشف الآزتيك أنه ليس بإله وإن كان أبيض اللون ولانزل من السماء وإن أتاهم من المشرق!.

لقد انتهى الكشف بالنسبة إليه وبدأ الفاتح الجشع يقفز في خاطره. اعتقل الملك بالأغلال ليجعله طوع أمره يصدر لشعبه الأوامر التي يشاء. أعلن أن البلاد تابعة لشارلكان ملك اسبانيا. أعدم حرقاً بالنار ضباط الملك أمام قصره وهو في القيود. بدا العمل شديد السهولة. لم يكن كورتيز يحلم بذلك لكن المصاعب لم تبدأ إلا حين انتشر خبر الكشف وفوجيء كورتيز بعد أشهر، بقدوم عدوه نارفايس في ألف وأربعمائة جندي اسباني يطلب إليه الجلاء عن تينوشتيتلاند بأمر من نائب الملك في كوبا خادع كورتيز قوة نارفايس التأديبية فر من فوق الممر الطويل فيما يسمونه بالليلة الكئيبة. هل خرج كورتيز من حلمه الفردوسي كما خرج آدم من الجنة؟ أبداً لقد استطاع بعد عدد من المعارك أن يعود إلى تينوشتيتلان ليجد أن الدنيا انقلبت في غيابه القصير: هدم الجند الاسبان صنم الآزتيك الأكبر. سرقوا المعابد. أجبروا الناس بالقوة على اعتناق

المسيحية مما ملأ الآزتيك بالمرارة! فما لبثوا بعد عودة كورتيز إلا قليلاً حتى ثاروا به وبالجند فقتلوا ثلثهم وطردوا الباقي من المدينة... هل طار بذلك حلم المملكة التي كان يملأ رأس كورتيز؟ إنه سوف يعيده بالقوة.. بنى السفن في البحيرة لضرب المدينة. اجتذب إليه أعداداً هائلة من التيلاسكال من قبائل المكسيك العدائية الذين كان الآزتيك يستعبدونهم وعدهم الوعود المعسولة... أليس بإله في زعمه؟

في أواخر سنة ١٥٢٠ كان قد أكمل استعداده /٥٤٠/ جندياً من المشاة. أربعون من الفرسان وحوالي مائة ألف من المكسيكيين. حاصر المدينة الحصار الدامي الشرس. هدم أجمل ما فيها من الأبنية والمعابد بالمدافع. قتل حوالي ربع مليون من سكانها. بعد أن قطع عنهم المؤونة والماء... كانت مدافعه في قذيفة بعد أخرى تدمر وتدمر. ودافَعَ الآزتيكُ بضراوة. أغرقوا المهاجمين بالسهام والحجارة. قدموا من أسروه من الاسبان ضحايا للإله سائلين الرضى عنهم. صلوا. وعبثاً ما وصلوا!... كان جيش كورتيز يقتحم المدينة مدمراً كل شيء حتى سدت الأزقة بالخرائب وغصت بالجثث الممزقة والحرائق والنار.

بهذه المأساة الفاجعة انتهت امبراطورية الآزتيك وظل الاسبان ٣٠٠ سنة بعد ذلك يدمرون كل أثر لحضارتها. حولوا معابدها كنائس. أحرقوا كتبها المقدسة. أجبروها على التنصر قسراً. جعلوا من نبلائها عبيداً. لم يبق من تلك الإمبراطورية العظيمة ولا من حضارتها كبير أثر. المصارع الإسباني كما في مصارعة الثيران لم يترك فريسة إلا جثة تجر خارج حلبة التاريخ!

غابت تماثيل الآلهة التي كانت تقوم في تينوشتيتلان بكل مكان. انتهت احتفالاتها بالضحايا البشرية للآلهة في أعلى الاهرامات المدرجة. درس قصر الملك الذهبي الذي كان في مائة غرفة ومائة حمام حار وعشرين مدخلاً وتتسع قاعته لثلاثة آلاف شخص. لم يبق شيء من العلوم: الفلكية المتقدمة. إلا حجر الشمس الذي كتبوا عليه التوقيت. محي السكان الذين كانوا يعدون اثني عشر

مليون إنسان وتحول بعضهم قبائل رحلاً.

ضاعت قوانينهم لولا التقاليد. لم تسلم إلا بقايا من نقوشهم الحجرية الرائعة على المعابد ومن فسيفسائهم بألوانها المدهشة ومن روائع السجاد الذين كانوا ينسجون. ذهب كل شيء من هذه الحضارة الباذخة التي يحاول المكسيكيون اليوم جمع نتفها وبقاياها وكتاباتها ليقيموا منها تاريخاً قديماً لهم... مع أن الكثير منهم هم من أحفاد المدمرين...

ويتعصب المتعصبون لكورتيز وكثيراً ما يمتدحونه وهو أول المدمرين. ترى هل عرف التاريخ مكتشفاً بدأ معبوداً سماوياً وانتهى في ستة أشهر إلى وحش شرس مثل كورتيز؟

ويسألونك عن ملك الآزتيك مكتزوما؟ ما مصيره؟ قل: فتشوا عنه تحت الأنقاض! مامن أحد بقي ليبحث عنه!

كلف الكثير... ولا فائدة منه!

الكثيرون قد يعرفون لماذا تتكالب الدول على اقتسام مناطق النفوذ في القطب الجنوبي بما فيه من الأرض والثروة ولكن لماذا لاتتكالب التكالب نفسه على القطب الشمالي؟ السبب بكل بساطة أن القطب الجنوبي قارة من الجمد. أرض صعقها الجليد. وأما الشمالي فليس سوى ماء تجمد، فراغ يتموج، محيط مائي جثم فوق سطحه محيط من الجليد!... أرضه ليست من أرض الناس ولكنها بحر من الماء الأوسع يصل المحيط الأطلسي بالمحيط الهادي من أقصى الشمال... حتى حين عرفت هذه الحقيقة وعرف الناس أنه ماء في ماء ليس غير. فقد أغرى الكثيرين بمحاولة الوصول إلى ما يفترض أن يكون القطب الشمالي فيه! إنه نقطة افتراضية لا أكثر بلى! الصقيع الشديد هو الذي جعلها موطىء الزاحفين المغامرين على الجلد! ولكن من ذا يدافع أي اكتشاف بعد أن بدأ عصر الاكتشافات بفاسكودي غاما وكريستوف كولومب؟

قبل الآن بمائة وسبعين سنة حاول إنكليزي اسمه باري أن يقترب قدر الإمكان من القطب الشمالي. ذهب في البحر وذهب. وأوقفته الجمديات فنزل عليها وتابع السير بالزحافات والكلاب واقترب فصار على بعد ٧٠٠ كم منه ولكنه تبين أنه بينما كان يسير كانت الجمديات التي يزحف عليها والتي تعرف بالبانكيز تحيد به نحو الشرق... إنها تحركت تحت زحافاته حوالي خمسين أوستين كيلومتراً... وفشل المشروع لأنه رأى أنه بذلك يتراجع ولايتقدم!

بعد خمس وعشرين سنة نظمت الامبريالية البريطانية بعثة كبرى جعلت قيادتها للسرجون فرانكلين، أحد قوادها العظام. ولكنها كانت كارثة. مات الرجل من فساد الدم. وأتلفت الجمديات سفنه وملاحيه جميعاً... لم ينج أحد! وظلت الامبريالية تبحث عبثاً عن جثته أو جثثهم!... وتوالت بعثات البحث عنهم ومعها بعثات القطب قرابة أربعين سنة في القرن الماضي! في

نهايتها سنة ١٨٨٤ ثبت للناس أن القطب الشمالي بحر متجمد! وأن جمدياته تتحرك باستمرار على الماء كما اكتشف المكتشفون ممراً يقطع الكتلة المتجمدة بالطول وممراً آخر يقطعها بالعرض. ولكن الممرين ليسا بالقريبين من نقطة القطب. إنهما من حولها! وعرفوا خلال ذلك أن ضغط الجليد على السفن يفككها ويسحقها!

في هذه الفترة من أواخر القرن الماضي دخل الاسكانديناڤيون في لعبة الاكتشاف هذه. أهي لعبة؟ بلى فما الفائدة من بحر يصل الكشف إلى نقطة فوق مائه؟ وما معنى قهر القطب وهو لولا تجمد أمواجه ماء في ماء؟ وتحول الكشف إلى نوع من اللعبة الرياضية لولا أنها تخفي وراءها أهدافاً استراتيجية اقتصادية تتعلق بالاتصال الأقرب بين الشرق الأقصى وغرب أوروبا أو أمريكا الشمالية عن طريق الشمال.

أعد النرويجي نانسن سفينة تطفو كلما ضغط عليها الجليد وحسب حساب الانزياح الجليدي وجهز السفينة بأجهزة التدفئة. وتحرك أول مرة في حزيران (يونيو) سنة ١٨٩٣ ومعه ١٢ ملاحاً. نجحت السفينة في الطفو على وجه الجمديات ولكنها لم تنجح في الوصول إلى القطب بسبب الخطأ في حساب الانزياح وقرر نانسن السير نحوه على الأقدام. أمضى على السفينة شتاء مليئاً بالضجر. قتله الملل ما بين نوفمبر سنة ١٨٩٤ وفبراير سنة ١٨٩٥... قبل أقل من مائة سنة، وترك السفينة لينزل مع زميل له لمواصلة السير نحو القطب...

زمهرير العواصف وجحيم البرد والصقيع وتكاثف الضباب حتى انعدام الرؤية كلها تعاونت ضدهما. قضيا أشهراً بعد أشهر يحاولان. ومضى عليهما خمسة عشر شهراً لم يتصلا فيها بأحد وهما في هذه الصحراء البيضاء الضبابية. كل ما وصلا إليه أنهما تقدما حتى وصلا إلى ما يقرب من ٤٠٠ كم من القطب.

نقطة الماء المتجمدة العصيية لم تقهر؟. وماذا كان يعني قهرها سوى الكشف الاسمي بعد المجازفة بالمال والأرواح والمصائب، المساحة خاوية شاسعة متجمدة من الماء؟ وتقدم الأمريكي وبرت بيري لهذه المجازفة. ليحقق النصر

المعنوي لاغير.

أخفق بيري أول مرة حين تحرك سنة ١٨٩٩ من جزيرة غرينلاد في الشمال الشرقي من كندا. ثم أخفق كرة أخرى سنة ١٩٠٢ وأخفق كرة ثالثة سنة ١٩٠٦ . لم تفتر عزيمته. كان كمن يبحث عن كنز ثمين هناك.

في سنة ١٩٠٩ في المرة الرابعة اتفق مع رجال الاسكيمو على بناء سلسلة من المحطات على الطريق يتزود منها... ونجحت هذه المحاولة بعد عشرين سنة من المحاولات الفاشلة. وأعلن بيري باعتزاز لقد تم قهر القطب! كان معه أربعة من رجال الأسكيمو وزنجي واحد ولكن من ذا الذي يذكرهم؟ صار اسم بيري الأبيض وحده على كل لسان هل انتهت القصة؟ ألم تنته بعد!

كان بيري يتنظر كل شيء إلا هذه المفاجأة. أمريكي آخر اسمه فريدريك كوك أعلن أنه وصل القطب قبل ذلك بسنة سنة ١٩٠٨! وسرد قصة طويلة لاكتشافه المفخرة إنه يساهم منذ ١٥ سنة في الرحلات القطبية. وقد ثبت أنه انطلق في التاريخ الذي ذكره وأنه قام بالرحلة إلى القطب ولكن من ذا يشهد بجانب كوك أو بجانب بيري؟ مامن أحد شهد النصر!

من سوء حظ كوك أنه كان يبالغ وكان في تقريره الذي قدمه إلى معهد الجغرافيا في واشنطن فجوات كثيرة ولذلك أعلن المعهد أن بيري هو الذي انتصر على القطب. وكان ذلك سنة ١٩٠٩ وليس سنة ١٩٠٨ وتوقفت بذلك الرحلات على الأرض والماء... أما في الجو؟

المحيط المتجمد الشمالي بحر يتوسط القارات الكبرى الثلاث في شمالها، تحيط به كندا من أمريكا الشمالية، والبلاد الاسكاندينافية من أوروبا والصحراء السيبيرية من آسيا... الطائرات اليوم تمر فوق هذا البحر ذاهبة آيبة كما تمر بأي طريق جوية. كثافة الاتصالات بين دول هذه المناطق يجعل هذا الطريق المختصر أمراً عادياً. فوق كتل الضباب... في أواخر القرن الماضي ومطالع هذا القرن كان الطيران ما يزال بين الحلم والحقيقة. وكانت التجربة تقذف تارة بمنطاد فاشل يحترق أو بطائرة ذات أربعة أجنحة تسقط. كان حلم الانسان الطائر ما

يزال على ما تركه البساط السحري وعباس بن فرناس...

ولست تدري لماذا اختير المنطاد للطيران فوق القطب. أحد السويديين واسمه آندره قرر التحويم سنة ١٨٩٧ به حتى القطب على منطاد! بدأ المشروع، ولم يكن القطب قد قهر بعد، أشبه بالجنون ولكنه نفذه... وتحكم الرجل بمنطاده فنزل به على هون فوق الجمديات وحين لامست سلة المنطاد الأرض فوجئوا بمعاودته الصعود طليقاً في الجو ومعه الأدوات والمؤن ووجد آندريه،مع رفيقيه اللذين نزلا معه أنفسهم في الصحراء البيضاء . لازاد ولامأوى ولاأداة... والضباب الكثيف الأبيض كان الأكفان يلتف بهم ويعصف مع الريح والزمهرير!

بعد ثلاثة وثلاثين سنة عثر على جثث الرفاق الثلاثة. كان آندريه آخر من مات منهم وقد كتب عن مرض قاتل أودى برفيقيه. ثم بعد ذلك دون شك، أودى به وخلال ذلك صار الوصول إلى القطب بالمنطاد نوعاً من الشرف، حاوله الجنرال نوبيله الايطالي أول مرة سنة ١٩٢٦ وألقى مع رفيقيه الأمريكي والنرويجي بأعلام دولهم فوق نقطة القطب ولكن منطادهم هبط هبوطاً كارثياً كاد يذهب بهم. ومع أن نوبيليه عاهد نفسه ألا يكرر التجربة فقد كررها بعد سنتين بناء على طلب من موسوليني... سيد ايطاليا في حينه... وحلق المنطاد فوق القطب... في العودة كانت الكارثة. اصطدم المنطاد بالجليد وقذف بمن فيه وبدأت الطائرات البحث الذي اشتركت فيه عدة دول: السويد. فرنسا. ايطاليا حتى عثر على نوبيليه حياً أما رفاقه؟... وانقطعت المحاولات المنطادية بعد ذلك. فقد كانت أجيال الطائرات تزيحها جيلاً بعد جيل... في حين ساهمت الحرب العالمية الثانية في استخدام جو القطب الشمالي للمرور...حتى صارت قضية المرور به قسماً من علم الأرصاد الجوية... وأقيمت حوله وعلى جمدياته محطات الرصد لايهم بعد هذا أن أول غواصة ذرية مرت

من تحته صيف ١٩٥٨ وبعد أسبوع نجحت غواصة أخرى في كسر جليده والطفو فوق الجليد... الهام أن الأبحاث أثبتت منذ سنتين فقط أن بيزي الذي زعم أنه قهر القطب. كان كاذباً. لم يصل أبداً إلى القطب!...

التعيس وقبة الفلك

قبة الفلك، كانت، منذ رفع الانسان بصره إليها، وكم رفع، لغزاً يتحداه. سراً من أسرار الكون والحياة، مدى لانهائياً يسرح فيه الخيال ماشاء ثم ينقلب خاسئاً وهو حسير! زرقة السماء أضحت في دمنا. أماناً من الظلام. أما الليل فصار منذ القديم نوعاً من الرعب الأخرس نخشى العبور فيه. الانسان البدائي الذي يكمن في داخلنا مازال يتنفس!

بعض الأقدمين جعلوا من النجوم آلهة تعبد وبعضهم حتى اليوم يربطها بالقدر والحظوظ ويقسمها أسماء وأبراجاً. وما ابتكر الانسان النظارة المقربة إلا ليخترق كنه هذا البصيص اللامع كالأعين في الظلمة ماذا تراه يكون؟ غاليليه، العالم الفلكي الايطالي هو الذي ابتكر هذه الآلة ذات العدستين ليرقب السماء عملياً وعن قرب... وتطورت هذه النظارة مع الأيام حتى صارت تلسكوباً ثم دخل عليها الكومبيوتر والتكنولوجيا الحديثة فغدونا نرى من خلال ملايين السنين الضوئية، نظامنا الشمسي، وآلات النظم الشمسية الأخرى معه في المجرة التي تنتثر نجومها المرئية في الليل. ونرصد من وراء هذه المجرة مجرات أخرى عديدة بالملايين أكبر منها ونرقب الثقوب السوداء التي تهوي فيها المادة فلاتبين!...

هذه الكشوف المتصلة والتي لم نصل بعد إلى نهاية كلها إنما بدأت بقبضة من الرجال ظهروا ما بين القرنين السادس عشر والسابع عشر. فصلوا - بفكرهم - ما بين الأرض والسماء وكوروها ببيان الأدلة على كرويتها ثم رسموا مسار أفلاكها والكواكب بالدليل الرياضي. واكتشفوا - بالفكر والحساب أحياناً - أعداداً من أمثالها وأحوالها... وأهم من هذا كله أنهم أطلقوا الأرض بما عليها كوكباً تافهاً صغيراً يدور في فضاء الله الأبعد كالذرة في الكون الأعظم النظيم. وأعادوا بذلك هذا الانسان الذي يظن نفسه جباراً كبيراً إلى حجمه

الأصغر الأصغر فهو لاشيء لولا الله. من هؤلاء المكتشفين كبلر، يوهانس كبلر!

قد لاتكون سمعت بهذا الاسم من قبل. ولكن لاباس أن تعرف أن هذا الألماني الذي ولد أواخر سنة ١٥٧١ في ألمانيا وتوفي سنة ١٦٣٠ قد قام بين المولد والوفاة بثورة كاملة في علم الفلك. الثورات لاتكون بالدماء والأشلاء فقط ولكن بالأفكار المتفجرة أيضاً. أهم من الثورات الدموية تلك الثورات التي تقلب نظم المعرفة على رؤوس أصحابها وتطلع. الناس بفجر جديد.

وهذا بالضبط مافعله كبلر! قلب جانباً من نظام المعرفة الانساني! ولد في ورتمبرغ. وقضى حياة ما تنفك تعيسة مضطهدة. وإذا لم يشحذ الاضطهاد والتعاسة مكامن العبقرية فإنهما على الأقل لايغطيان عليها. إنها كالدراهم الخبيئة التي وصفها عمر بن الخطاب، تأبى إلا أن تخرج أعناقها.

ولد كبلر قبل موعده لأبوين يتنازعهما الخصام الدائم. لم يكن زواجهما سعيداً لأن الفقر كان يفسده على الدوام، ويعضه مرة بعد مرة، والأم مشاكسة عنيفة المشاكسة والأب جندي من المرتزقة لدى بعض الأمراء الصغار لايكاد رزقه يسد الرمق. ونشأ الابن ضعيف البنية ضئيلها، كثيرَ الأمراض لم يظفر أبداً بصحة مريحة. الأمر الوحيد الذي كان واضحاً فيه هو ذكاؤه اللامع. منذ كان صغيراً كانت عيناه تشعان بالذكاء. لكن تحدره من أسرة فقيرة كان ممكناً أن يحرمه من الدراسة لولا أن دوقات دورتمبرغ كانوا يتبعون سياسة التنوير ويتبنون أبناء رعاياهم المتزمتين يمنح دراسة سخية.

بواحدة من هذه المعونات حظي كبلر سنة ١٥٨٧ بأن يدخل جامعة توبنغن. وكان من حظه أن استاذ الفلك فيها كان من القلائل في الأساتذة الجامعيين الذي يقول، في أيامه، أن النظام الشمسي والفلكي المقترح من قبل العالم كوبرنيك هو في أساسه صحيح. وأن الأرض كوكب يدور حول محوره دورة كل يوم متنقلاً في الوقت نفسه في دورة أخرى حول الشمس تستمر سنة كاملة.

وآمن كبلر، في عمق وقوة، بهذا الرأي الفلكي الجديد الذي أضحى محور تفكيره وحياته الفلكية حين تخرج سنة ١٥٨٨ من الجامعة بالإجازة ثم سنة ١٥٩١ بالماجستير لم تكن خطته أن يعمل في الفلك ولكن أن يصبح وزيراً أو ثرياً، من أتباع المذهب الديني الجديد الذي انشق عن الكاثوليكية في تلك الفترة، وقال بحق لكل فرد أن يفسر الكتاب المقدس كما يفهم ويشاء... كانت هذه الفكرة تكملة متممة لأفكاره الفلكية... فجمهور الكهنة والقساوسة كانوا مايزالون على المذهب الأرسطي وعلى القول باستدارة الأرض المبسوطة ودوران قبة الفلك كلها حولها...

واتفق، أن كان كبلر ينهي السنة الأخيرة من دراساته العليا في اللاهوت من جامعة غراتس اللوثرية في النمسا حين توفي أستاذ الرياضيات فيها فرشح كبلر بقوة ليحل محله. لم يكن قد أنهى دراسته بعد ولكنه سافر إلى غراتس مسرعاً ليلتحق بعمله الجديد. وفي صيف سنة ١٥٩٥، أي منذ أربع مائة سنة، وفيما كان يدرس في بعض الصفوف التمعت في جبينه خاطرة رائعة مشتقة من فلسفة أفلاطون القديمة واليونان القدماء: أن يقيم علاقة سببية منطقية، أو يحاول أن يقيمها بين مدارات الكواكب بأشكال هندسية.

هناك حسب رأي كوبرنيك ستة كواكب تنظم مداراتها في مسارات لاترى. ولكن لماذا لم تكن إلاستة فقط وليس تسعة أو مائة. هل بنى الكون كله بحيث تقوم خمس روابط بين كل زوجين من هذه الكواكب... بحث كبلر هذا الموضوع رياضياً على الورق وأصدر. بإشراف جامعة توبنغن كتاباً فيه طبع سنة ١٥٩٦. كان فكره ما يزال متعلقاً بمفاهيم أفلاطونية وفيثاغورثية حول التناسق الكوني الرياضي، وهي في الأساس. مفاهيم روحية ولكنها مع ذلك قادت كبلر إلى وضع مبادئه الثلاثة التي عرف بها واشتهر حول حركة الكواكب في النظام الشمسي.

أرسل كبلر بنسخ من اكتشافه إلى عدد من كبار علماء الفلك في عصره بما فيهم تيخو براهي الدانمركي الذي أضحى رياضي الامبراطورية الرومانية

المقدسة فأعجب به لدرجة أنه دعاه إلى أن يكون بين العاملين في مرصد بيناتيك في ظاهربراغ وبعد سنة توفي براهي وأخذ كبلر مكانه. وأعلن هناك رفضه للتنجيم وقال بالتناسق الكوني بين الكون والبشر. صار أحد الأقطاب في علم الفلك.

عمل كبلر على ذلك مايزيد على عشرين سنة واستخرج قوانينه الرياضية واحداً بعد الآخر من النظارة الفلكية التي كان يرود بها السماء والتي عرفت باسمه، ومن الملاحظات الثمينة التي خلفها الفلكي الدانمركي تيخو براهي. وأهم هذه القوانين أن الكواكب تدور في مسارها حول الشمس في فلك اهليلجي (أو بيضاوي) وليس بشكل دائرة وأن الشمس تقوم في أحد مركزي هذا الشكل. ولا علاقة لذلك المسار بكتلة الكوكب. كانت ولادة فكرية عسرة مرهقة لقوانين جمعت فتاتها من ألوف الملاحظات في آلاف الليالي ولكن من ذا الذي قال إن خواطر الفكر أهون أو أقل مخاطر ومزالق، من الكشوف الأرضية؟

كبلر ابتكر لأعماله منظاراً فلكياً عرف باسمه: التلسكوب الكبلري. ما كان يفارقه في صحة أو مرض، وكم مرض. وكانت الدراسات الرياضية الفلكية تعشش في كل خالجة فيه. ترهقه فوق إرهاقه المرضي. وفيما كان يفكر ويحسب في قوانينه الرياضية كان يحاول كشف التفاسير أيضاً لبعض الظواهر الأخرى في السماء. مساعده جان برونوسكي لاحظ بعض الانفجارات الضيقة في النجوم في بعض هذه المنظومة الفلكية التي ندعوها بالمجرة. كان ذلك سنة ١٦٠٤ وظل كبلر يدرس ذلك سنتين مراقباً على التلسكوب، وحاسباً على الورق تتناثر الحروف والأرقام من حوله حتى عرف السر الذي دعى منذ ذلك الوقت باسم نوفا كبلر.

عند موته كانت أفكاره تدخل الجامعات. وكانت ثورة قلبت علم الفلك وفصلت عنه علم التنجيم... الغريب أنه هو نفسه لم يكن يدرك ذلك! كان يتصور أنه لم يقم إلا بتقديم رأي بين الآراء! هل ترى أصحاب الثورات الفكرية يجهلون فعلاً ما يفعلون؟

كشوف اكتملت وأخرى لم تكتمل

قال لي صديق: في خاطري وخاطر الكثيرين سؤال لعلك تسمعه على هون فلا تثور!... لطالما ذكرت المكتشفين الغربيين فهلا ذكرت شيئاً أيضاً عن العرب المسلمين. ألم يكن لهم ما اكتشفوا ومايكتشفون؟ وقلت بلى. ولكن ألست ترى أن الأمور رهينة بأوقاتها. وليس لعصر أن يسبق عصراً ولو حرصتم. إن لكل كشف أدواته ومقدماتِه وعواملَه. الاكتشافات الجغرافية ما كانت ممكنة لولا أن وصلت صناعة المراكب إلى الحد الذي تغامر فيه بالمحيطات مع البوصلة ولا الاكتشافات الفلكية كان أوانها في العهد الاسلامي وكان يجب أن تنتظر ابتكار نظارة غاليلية والتلسكوب...

والكشوف الطبية لم تكن ممكنة قبل أن توضع لها آلة الميكروسكوب وتتكامل قبلها صناعة العدسات. العرب، بلى، بدأوا مختلف الكشوف في محاولات عديدة وإذا لم يتموها فلأن أدواتها لم تكن قد تكاملت بعد... كانت الحضارة الاسلامية في مطالع الطريق إلى الكشف والابداع حين تكالبت عليها من الغرب ما بين الأندلس وصقلية إلى الشام الحملات الصليبية الحاقدة وتلتها بعد أقل من قرن من الشرق الغزو المغولي المدمر واستمرت هذه الحملات وتلك الغزوات ثلاثة قرون وأربعة وخمسة وجمعت كل القوى العربية الاسلامية من الابداع إلى الدفاع ووجهتها بدل الانفتاح الفكري المتزايد إلى التصلب العقائدي المتزايد.

صار إنقاذ العقيدة التي توحدت مع الناس، إيديولوجية ودفاعاً. أهم من الانصراف إلى تطوير الشراع أو النظارة المقربة أو بحث عالم الذر أو الاهتمام بالأطلال الأثرية... ولهم في كل يوم أطلال جديدة تهدم...

العرب المسلمون استغلوا الأدوات التي أتيحت لهم وطوروها حتى الحد الأقصى التي يسمح به العصر سواء في السماء أو على الأرض وكشفوا في العلم

ما استطاعوا كشفه. أما على الورق وفي البحوث النظرية فقد وضعوا جميع أسس العلوم التي استندت إليها الكشوف فيما بعد، كشف العرب رمز العدم حين مثلوه بالصفر كشفوا الترقيم العشري ونظموا له سلسلتين كتابيتين.

وكشف محمد بن موسى الخوارزمي ، في أيام المأمون علم الجبر والمقابلة. ابتكر تحويل القيم الحسابية المحدودة إلى أرقام رمزية غير محدودة. وابتكر العرب المسلمون المثلثات واللوغاريتمات والهندسة التحليلية... لاتحتاج هذه الأمور إلا إلى الفكر النظري وقد كشفوها كما كشفوا عدداً من قوانين الضوء وعلم المناظر التي تقوم على الملاحظة المباشرة وجوانب من علوم الكيمياء العملية كالسموم والأصباغ وزيت الزاج (حامض الكبريتيك) ومن علوم الصيدلة والأدوية والطب.

لسنا هنا إلى الفخر ولا إلى تنازع الفضل فالتراث الانساني تراكمي. وهو ملك لجميع البشر... ولكن أمرين على الأقل حالا بينهم وبين مايريدون من بعد من المتابعة الأول أن المرحلة لم تكن قد نضجت بعد في العهد الاسلامي للقيام بالكشوف الكبرى لكن العرب وضعوا الأسس لها، كل الأسس وانبسطوا في دنيا العلوم النظرية والعملية بالقدر الذي أتيح لهم. الثاني أن الايقاع العربي في الفكر قد خنق بالهجمات الوحشية من غربية صليبية وشرقية مغولية فأوقف هذا الغزو الوحشي تطور الإبداع والكشف واستبدل بهما ضرورة الانغلاق والمحافظة الدفاعية أليس يفعل ذلك المحار والقنفذ؟ يبقى أن نضيف هاهنا أمراً... إن أوروبا لم تبدأ نهضتها الحقيقية إلا حين تدفق عليها الذهب الأمريكي والشراع القوي الذي يمتصه... ولم يحاول ذلك العرب؟ بلى ومرات عديدة. ولدينا بعض الأخبار عن هذه المحاولات. دعونا من الشرق ولنأخذ الغرب... نهايات المحيط الأطلسي، بحر الظلمات، رغم ماكان يحيطها من أوهام العفاريت وانسكاب الماء ودنيا الضباب، فالأخبار تذكر محاولات اختراقه.

المؤرخ العربي المسعودي من أهل القرن الرابع الهجري (العاشر

الميلادي) يروى لها بعض مطالع الحكايات يقول: «يذهب قوم إلى أن هذا البحر أصل ماء سائر البحار... وله اخبار عجيبة... ومنها أن رجلاً من أهل الأندلس يقال له خشخاش وكان من فتيان قرطبة وأحداثها أي رجالها المغامرين جمع جماعة من أحداثها وركب بهم في مركب استعدها في هذا البحر المحيط فغاب فيه مدة ثم انتهى بغنائم واسعة...» وخبره مشهور عند أهل الأندلس. ويمكن إرجاع هذه المغامرة من ناحية الزمن إلى القرن الثالث الهجري /٩ الميلادي. ولكن أين بلغ خشخاش من هذا البحر؟ هل هي جزر آسور (الخالدات) أم جزيرة ماديرا أم جزر الكناري؟... ليس يدري ذلك أحد وماهي إلا من باب التخمين.

على أن تفاصيل أكثر وضوحاً وردتنا عن محاولة ثانية. عن أخبار رحلة من لشبونة قام بها ثمانية شبان أبناء عمومته لقبوا أولاً بالمغربين فلما فشلوا صاروا عند الناس: المغررين والمغرورين ويروي قصتهم الجغرافي العربي الادريسي فيقول: إنه كان في لشبونة درب يعرف باسمهم هذا (المغررين) ويعيد القصة الامام أبو حامد الغزالي كما يعيدها ابن فضل الله العمري وجوهرها أن ثمانية إخوة وأولاد عمومة عزموا على ركوب بحر الظلمات ليعرفوا ما فيه والي أين انتهاؤه؟ وأبحروا مع الريح الشرقية مدة أحد عشر يوماً إلى موضع صخري مخيف شديد الظلمة ثم اتجهوا جنوباً مدة اثني عشر يوماً إلى أن أبصروا جزيرة فيها قطعان هائلة من الغنم فسموها جزيرة الغنم ثم أوغلوا اثني عشر يوماً أخرى في الاتجاه نفسه حتى بلغوا جزيرة ثالثة أسرهم أهلها وكانوا ذوي بشرة حمراء، شعرهم قليل ناعم وقاماتهم طويلة. وحين بدأ هبوب الرياح الغربية أمر سيد الجزيرة بترحيلهم معصوبي الأعين إلى القارة التي بلغوها بعد إبحار ثلاثة أيام بلياليها. وهناك علموا من البربر أنهم في جنوبي مراكش على مسيرة شهرين من بلدهم وكان موضع نزولهم البقعة التي قامت عليها فيما بعد مدينة آسفي...!

إذا كان بعض ملامح هذه القصة مما يدخل في الأدب الشعبي فإن بعضها الآخر يدخل في الكشوف الجغرافية. لقد اشتهر المغررون بهذه المحاولة التي قد

تكون وصلت بهم إلى جزر الكناري أو جزر آسور... من يدري؟ وعودتهم عن طريق مراكش من الجنوب لاتترك مجالاً للشك في صحة المحاولة... وإن اضطربت التفاصيل. ولم تكن هذه المحاولة مع ذلك هي الأخيرة.

ثم قصة يروي أولها ابن فضل الله العمري في كتابة الضخم: (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) ويروي الأسطر الأخيرة منها كريستوف كولومب... بلى كريستوف كولومب! ابن فضل الله العمري الذي توفي قبل ١٤٤ سنة من كشف أمريكا يذكر أوائل القصة: أنه ورد إلى مصر سنة ٧٢٤ / ١٣٢٣م ركب الحج السوداني وعلى رأسه سلطان مالي وموريتانيا منسى موسى... نزل في حاشية من عشرة آلاف حاج في مظلات وخيل وحرس وأحمال لاتضاهى من الذهب. سوق الذهب انخفضت أسعاره بشدة في تلك الزيارة. كان ذاهباً إلى الحج وتيسر لابن العمري لقاؤه والحديث معه فسأله فيما سأله وهم يتحدثون:

- كيف تتوارثون الملك في بلادكم؟ وهل وصلك هذا الملك بشكل شرعي؟

كان في ذهن ابن فضل الله وهو يسأل كيف تَحْكُمُ في مصر المماليكُ مملوكاً بعد آخر دون نسب ولا مؤهل سوى السيف فقال الملك:

- ليس هذا الملك لي. ولكنه لابن عمي. كان مولعاً بالمغامرة في بحر الظلمات يشوقه أن يعرف نهايته وقد أعد مرة حملة من ألف سفينة فلم يعد منها إلا سفينة واحدة ذكرت أن الباقيات لقيت في أواسط البحر تيار ماء يشبه النهر العظيم فأخذ السفن... وأثار ذلك الملك وأعد حملة أخرى من ألفي سفينة جعل نصفها للأزواد ونصفها للرجال فأبحر بها... ووكلني عنه ثم لم يعد بعد ذلك!... وحكاية النهر الذي في المحيط يفسرها تيار الخليج الذي ينطلق فيه من الجنوب إلى الشمال وأما القسم الأخير من القصة فيرويه كريستوف كولومب الذي ذكر أنه لقي في بعض الجزر التي اكتشف رجالاً سوداً بالبرانس البيضاء!... وهذا يعني أنه هو نفسه ليس أول الواصلين إلى أمريكا ولكنه أول

العائدين معها. سابقوه بقوا فيها...

وقلت في النهاية لصديق: هذه واحدة من الاكتشافات التي لم تكمل. ألم أقل لك في مطلع الحديث: إن الأمور مرهونة بأوقاتها؟

أضاف ٣٠٠٠ سنة إلى التاريخ

الامام الحافظ جلال الدين السيوطي الذي توفى منذ حوالي ٥٠٠ سنة وخلف وراءه، من تأليفه حوالي ٥٠٠ كتاب، عرض مرة لتاريخ مصر الأقدم وانظروا حصيلة ما جمعه مما كان يقال واستمر يقال حتى ما قبل قرنين عن التاريخ الفرعوني قال:

إن صاحب مصر الأول هو مصر بن بيصر بن حام بن نوح صاحب الطوفان وكان أول ملك عليها نقراوس ثم أخوه مصرايم وتلاه ١٥ فرعوناً قبل الطوفان. ثم جاء بعد الطوفان فراعنة آخرون حتى كانت قصة يوسف. ويتلوها قصة فرعون الذي طغا ٤٠٠ سنة وأمر موسى بعد ذلك ٥٠٠ سنة. وقصة دلوكة الملكة المعتزة بالسحر ومؤمن آل فرعون، يتلو ذلك قصة عوج بن عنق الذي كان طوله ٨٠٠ ذراع وعرضه أربعون ذراعاً وقد عاش ٣٦٠٠ سنة.

ثم يتكلم السيوطي عن البرابي (المعابد) والأصنام والمسلات الحجرية طول الواحدة منها ٣٨٠ ذراعاً (أي ٢٦٦ متراً) ويتناول الأهرامات التي كتب عليها بالأقلام السبعة: اليوناني والعبراني والسرياني والسندي والحميري والرومي والفارسي ويذكر أنها قبور ملوك الأوائل وأن بينها وبين عهد الرسول الأعظم ثلاثين ألف سنة... ويمر بين الفينة والفينة ذكر الكتابة الرومية على الآثار ويأتي أحد العارفين باللسان فيقرؤها. ويجد المرء أنه أمام نص مصنوع الغرض منه التفاخر والعبرة، أنا بنيت الأهرامات في مائة يوم فليأت بعدي من يهدمها في ألف يوم والهدم أسهل من البناء. كما يمر ذكر الكهانة والطلمسات بكل مكان وملك المرأة المسماة دلوكة لمصر... وتتوالى هذه الأحاديث وأمثالها ٩٥ صفحة!... تحس فيها ببقايا بعض الحقائق التاريخية التي اختلطت بالأساطير حتى العظم فما تبين منها حقيقة... كان التاريخ الفرعوني ينسج النسيج الواهن

من التصورات. تُرقِّعُ الواقع وتملأ الفجوة التي يحسها الناس بوضوح أمام ذلك الكم الهائل من الآثار المصرية الماثلة ومن أخبار الثروات المكتشفة فيها والتي يسيل لها لعاب الحكام والمساكين على السواء... وأما النقوش التي عليها فقلما اهتم بها أحد حسبوها نقشت للزينة وملء الفراغ!.

وكان يوم... من آخر القرن الثامن عشر حين أبحرت حملة فرنسية لاحتلال مصر ولقطع طريق الهند على انكلترا. الحملة جهزت لابالجنود فقط والعدة والمدافع، ولكنها جهزت أيضاً بالعلماء في مختلف أنواع العلوم كما لو كانت حملة احتلال واستقرار دائم جهزت حتى بالتراجمة والعارفين باللغة العربية وبمطبعة!... ونزلت الحملة فعلاً في الاسكندرية وكان لها ما أرادت. أما حكام مصر يومذاك من المماليك فذاقوا الهزيمة الشنيعة أمام النظم الحديثة للجيش الفرنسي. قابلوه بالسيوف اللامعة والملابس المزركشة على الخيل وقابلهم بالقنابل والنار والحديد. وانتصر باسم ما سماه «الجمهور الفرنسي» ومارس ما يمارسه كل محتل من ألوان الترغيب والترهيب. وأعلن نابليون حتى إسلامه وتحدى حتى دخل بفرسانه الجامع الأزهر.

في تلك الفترة عثر أحد ضباطه على حجر في بلدة رشيد الساحلية، على البحر المتوسط، عرف منذ ذلك الوقت باسم حجر رشيد. الحجر ليس بالكبير ولا الهام ولكنه كان يحوي أسطراً باليونانية القديمة وهي مقرؤة مفهومة وعليه كتابة أخرى يسمونها الديموطيقية وهي بدورها لها علماؤها الذين يحللونها ويفهمون فحواها لكن عليه أيضاً كتابة من نوع تلك الكتابات التي تزخر بها الآثار المصرية والتي يسمونها بالهيروغليفية وتعني الكتابة المقدسة... وهي رموز لايعرف عنها أحد شيئاً فقد مضى على انقراض آخر من يعرفها، وهم كهان مصر الأقدمون، ما يزيد على تسعة عشر إلى عشرين قرناً. ماتوا وأخذوا أسرارها معهم فالناس لايعرفون اليوم حتى أنها كتابة. نُسي عنها كل شيء.

ذاع خبر حجر رشيد بين العلماء، نشرت الدوريات صوراً عنه وقرىء ما عليه من الكتابة اليونانية وحلت رموز كتابته الأخرى الديموطيقية فوجد أنها

ترجمة للكتابة الأولى اليونانية... أما الرموز الأخرى فمن لها؟ عشرون سنة أو تزيد بقي علماء التاريخ المصري والآثار عاكفين عليها... وتكومت بين أيديهم مختلف الاقتراحات دون نتيجة...

وذات يوم، مرة أخرى، طلع عليهم عالم فرنسي شاب بحل تلك الرموز!

كان هذا العالم هو فرانسوا شامبوليون. كان له أخ أكبر منه بكثير معروف بأنه رجلُ مكتبات ودراسة خطوط وله كتب عديدة ولكن فرانسوا تجاوز أخاه بكثير واختطف منه ومن غيره الشهرة والمجد. لم يكن فرانسوا شامبوليون قبل حله للرموز الهيروغليفية أكثر من أستاذ عادي معجب بالآثار المصرية منذ صغره. وقد كتب وهو في السادسة عشرة من العمر كتاب ملاحظات عامة بعنوان، مصر أيام الفراعنة طبعه سنة ١٨١٤ بعد أن أضحى منذ سنة ١٨٠٩ وهو بعد شاب صغير، مدرساً للتاريخ في مدينة غرونوبل. واستهوته لعبة فك الرموز الهيروغليفية التي شاعت رموزها بين العلماء فأقبل بدوره عليها. يجرب حظه...

قضى في ذلك العمل عشر سنوات. بدأ فلاحظ أن بعض الكلمات اليونانية والديموطقية مطوقة بإطارات منحوتة من الحجر فافترض أنها يجب أن تكون ترجمة للكلمات المطوقة نفسها على الحجر في النص الهيروغليفي... ولكن هذه الملاحظة قد سبقه إليها العلماء الآخرون وعرفوا أنها كلمة بطليموس. مزية شامبوليون كانت في أنه أول من فرق بين فكرة الكتابة وبين التكوين الصوتي في هذه الكلمة الهيروغليفية: فالكتابة شيء والنطق الصوتي شيء آخر لاعلاقة له به.

اعتماداً على هذه القاعدة وعلى تنويع المقارنة انحل معه لغز الأحرف فإذا بها مختصرات رسوم وتحويراتها. وفي سنة ١٨٢٤ طبع كتاباً بعنوان مختصر من النظام الهيروغليفي لقدماء المصريين أصبح به من أشهر علماء الآثار المصرية وصار اسمه على الألسنة... كل هذه الرسوم التي نقشها المصريون الأقدمون على آثارهم هي إذن كتابات تاريخية مالبثت أن قرئت وبدأ تركيب التاريخ المصري

كله من جديد. وبصورة لاتقوم على الذكريات المنسية والترقيع الخيالي ولكن على الواقع المسجل...

نال شامبوليون على اكتشافه جائزة من ملك فرنسا شارل العاشر يومذاك. وأرسله الملك إلى إيطاليا لدراسة بعض الآثار وجمعها لِمتحف اللوفر في باريس ثم أصبح من هذا المُتحف مصلحَ الآثار المصرية. في سنة ١٨٢٨ ـ ١٨٢٩ سافر إلى مصر مصحوباً بتلميذه الإيطالي ايبوليتو روسيليني مع اثني عشر مساعداً لجميع ما يستطيع من الكتابات المصرية والنقوش.

حين عاد كانت تنتظره مفاجأة. عمل العاملون على أن يحدث له في الكوليج دوفرانس وهو أعظم وأشهر المعاهد الفرنسية كرسي خاص لتدريس التاريخ المصري... وقد بدأ العمل في هذه المهمة سنة ١٨٣١ لكنه لم يمتع بها طويلاً لأن في السنة التالية توفي وهو لما يزل في الثانية والخمسين.

كتابة في قواعد النحو المصري لم يره. طبع بعد موته سنة ١٨٣٦ وأثار الكثير من الضجة لدى جميع علماء الآثار والتاريخ المصري. لقي الكثير من المعارضة إلى أن استطاع عالم ألماني هو كارل ريشار لبسيوس أن يُعَدِّله بكتاب آخر سنة ١٨٣٧. قبل ذلك بسنة طبع كتابة آثار مصر والنوبة وفي سنة ١٨٤١ طبع المعجم المصري الذي وضعه شامبوليون واعتبر واحداً من أعظم الأعمال العبقرية في العصر. لقد وضع على أسس صحيحة علم الآثار المصرية وكان المؤسس لهذا العلم.

لم لانقول إنه بعد الأساطير والتخمينات أضاف ثلاثة آلاف سنة إلى التاريخ؟ مرت خلالها ٣٢ أسرة حاكمة حكمت مصر؟

المرض المميت الذي مات !

حتى ما قبل سبعين أو ثمانين سنة كان مجرد نطق كلمة السل في مجلس يبعث القشعريرة في البدن.

الناس ينطقون باسمه ويستعيذون بالله ألف مرة حين يفعلون. حين يذكر تتراءى أشباح الوجوه الصفراء وسعال الدم، ورقص الموت الذي لايطيل الانتظار! هذا الداء الوبائي كان دوماً رعب البشرية الخفي. جرف إلى القبور الملايين... وهم صامتون إلا من السعال الجاف. الذي يخلع أكبادهم ويسيل بها دماً من الأفواه.

ومن المؤسي أنه كان في الغالب داء الفقراء وداء الشباب يسكن كهوفهم الرئوية ويحيلها أقبية للموت!! الأشربة والأجحية والرقي والأعشاب لم تكن توقف الداء المتمسك بالرئة يمتصها حتى النهاية المحتومة... وقد يتمسك بالغدد اللنفاوية وبالجلد وحتى بالعظام ليحيل ضحيته طيفاً يمشي بدرنات صدره!

ويمج أحياناً دوماً فعلى   منديله قطع من الكبد
قطع ، تآبين، مفجعة   مكتوبة بدم بغير يد
قطع تقول له تموت غداً   وإذا ترق تقول بعد غد

هذا المرض الذي يودع آخر معاقله في الانسان الآن كان قبل المائة سنة الأخيرة فقط، وقبل أن تكتشف أسبابه وأنواعه كان واحداً من الأمراض التي تكتسح البشر حصاداً هشياً:

كالكوليرا وكالجدري والزهري والطاعون. وتكتسح معه البقر والماشية والطيور والفقريات الدنيا من الأسماك والزواحف. فلكل منها سله الخاص الطبيب الذي وقف لمرض السل. كشف سره. وكالحه حتى افتضح كان روبرت كوخ.

هذا الرجل طبيب ألماني ولد سنة ١٨٤٣ وتوفي منذ خمس وثمانين سنة. وقد قضى الجانب الأكبر من حياته في الصراع مع الباكتريا حتى صار أحد مؤسسي هذا العلم... ولد في بلدة كلاوشتال قرب هانوفر، حيث شهد صرعي السل من البحارة يطرزون السواحل بالوجوه الشاحبة والعيون الغرقى المنطفئة... ولم يكن يخطط كي يكون طبيباً وهو في فتوته ولكنه كان...

درس كوخ الطب في جامعة غونتغن. وكان من حسن حظه أنها كانت تجمع عدداً من أعلام الأساتذة يومذاك: فوهلر الكيميائي، وهنله الباتولوجي وغيرهما. ونجح كوخ حين تخرج في أن يكون طبيباً في بعض النواحي الألمانية: ولشتاين... وفي أوقات فراغه بدأ يدرس علم أسباب الأمراض المعدية، على الطرائق الكلاسيكية الجديدة... في سنة ١٨٧٦، وكان بعد في الثالثة والثلاثين من العمر أثبت بالتجربة أن مرض الجمرة ذلك الذي يصيب بالالتهاب الجلد والأنسجة تحت الجلد من الماشية والسائمة وقد يصيب الانسان ويقرح جسده إنما تصنعه باكتريا محددة تدخل تحت الجلد من المكورات العنقودية! ونجح عملياً في عزل هذه البكتريا وفي جعلها تنمو بالزرع الصناعي في أوساط نقية وفحصها مجهرياً وكتب نتائجه في رسالة نشرها سنة ١٨٧٧... فما تزال طرائقه إلى اليوم معمولاً بها.

في سنة ١٨٨٠ عين كوخ في مصلحة الصحة الملكية فقد كانت ألمانيا ملكية في ذلك الحين وقد أنجزت وحدتها بعد انقسام طويل منذ عشر سنوات وبسمارك يسيطر فيها على كل شيء... كانت هذه المصلحة هي معهد الطب في برلين الذي يجمع ألمع العقول الطبية في ألمانيا. وجمع كوخ حوله مجموعة رائعة من المساعدين له: لوفلير وكافلي وفون بيرنغ وإرليخ... وانكب على التجارب يحاول صراع مرض السل. كان يعلم أن الاكتشاف في المخبر لايقل قيمة ولا إنهاكاً عن الاكتشاف على الورق أو في البحر أو في المناطق الجبلية العاصفة أو عن كشف مناطق الذهب قد يعود المرء منه معفر الوجه صفر اليدين وقد يعود والذهب يزرب على جانبي حصانه... واختار كوخ المخبر!

بعد عمل سنتين أعلن كوخ أنه وجد السبب في مرض السل؟ إنه مكروب معدٍ يشبه العصية يغزو، عند الضعف والوهن أنسجة الجسم الذي يقاوم هذا الغزو بتكوين عقد صغيرة كالدرن تحتوي كل منها على بعض الجراثيم وعلى خلايا الدم البيضاء القتيلة وعلى الصديد... فإذا انطفأت مج المريض الدم... قطعاً رهيبة! بعد سنة واحدة من ذلك أعلن كوخ كشفة لمرض الكوليرا، على طريقته الأولى نفسها كشف عصيات هذا المرض الوبيل الثاني. والذي كان ينتشر بشكل وبائي من قبل فلا يبقي ولايذر. اسهال شديد مستمر وتقلصات عضلية لساعات تدمر الجسم تدميراً وقيء للسوائل يجفف الجسم ثم برد في الأطراف؟ إنها النهاية العاصفة!...

كشفان صاعقان متتاليان فتحا للإنسانية باب الأمل للخلاص من غولين من الأغوال التي كانت تلاحقها منذ وجد البشر. على أن شيئاً أساسياً كان ينقص الكشفين. كيف السبيل إلى قتل هذه العصيات؟ عمل كوخ ثماني سنوات في معمله يجرب ثم يجرب ليوجد ما أسماه السلين أو التوبركلين، دواء للسل! ولكن لم يكن الدواء الشافي. كان ينقصه أن يتكامل على يد آخرين. وقد تكامل بالفعل فيما بعد. لم ينفع هذا الدواء إلا في تشخيص الداء الذي تقوم به اليوم أشعه إيكس، أشعة رونتجن.

في سنة ١٨٩١ عين كوخ مديراً لمؤسسة طبية جديدة أنشئت للأمراض المعدية في برلين. وبقي في هذا المنصب ثلاث عشرة سنة حتى سنة ١٩٠٤. كان يؤم المعهد طلاب من جميع أقطار العالم ليتلقنوا مبادىء علم البكتريولوجيا الجديد، علم الجراثيم.

كل طالب جديد للبكتريولوجيا يتكلم أربعاً من المسلمات التي توصل كوخ إلى كشفها بوصفها جزءاً من تدريبه وصارت من قوانين العمل:

- يجب أن ينظر إلى أي عضوية مكتشفة أو جرثومة من جميع جوانب المرض المعوي.
- يجب أن تستخرج هذه العضوية بالزراعة النقية.

- يجب أن تحدث هذه العضوية المرض نفسه في الجسم الحيواني عند زرعها فيه.
- يجب أن تكون في النهاية قابلة للاكتشاف في جسم الحيوان الذي تجرى عليه التجربة.

كانت هذه المبادىء قد وضعها لأول مرة طبيب اسمه هنله. ولكن كوخ كان أول من طبقها بصرامة.

مكتشفات كوخ من خلال تطبيقها الصارم أعطتها قيمتها التجريبية الحقيقية. على أنها مع ذلك لم تطبق التطبيق الكامل في جميع حالات الأمراض المعدية (كما في مرض الجذام) ولكنها كانت ذات قيمة كبيرة كدلائل لكشف أعراض عدد من أهم هذه الأمراض التي تسحق الجنس البشري. كما تسحق الحيوان والنبات.

كوخ، أثناء عمله في مؤسسته سافر كثيراً يدرس العدوى والمرض. سافر إلى الهند ومصر يدرس الكوليرا. سافر إلى بومباي في دراسة وباء الطاعون، سافر إلى جنوب افريقيا، ينظر في طاعون الماشية.

كما أوغل في افريقيا الوسطى يتقرى مرض النوم في أوغندا وما تفعله ذبابة تسه تسه في الناس. وإلى إيطاليا يحاول أن يرى آثار الملاريا على ضحاياها في البحر الأدرياتي... صارت الأمراض المعدية تحدياً له. بكل مكان. صارت هوساً يملأ الحياة. هاجساً دائماً يتمنى معه لو. انصاعت له أسرارها التي كان يعتقد جازماً بتشابهها... إذن بلغ الأمر الذي كاد.

وحين نال جائزة نوبل سنة ١٩٠٥ لم يكن يحلم بمجد الجائزة ولكن بكشوف أخرى تعزز مجده العلمي. فلم تنقطع التجارب ولا أهملت الأنابيب. فحصيلته عن الأمراض المعدية التي جمعها في أسفاره ملأى بالملاحظات. وكما يطمع كاشف الذهب بالمزيد كذلك يطمع كاشف العلم...

ولعل كوخ حين مات سنة ١٩١٠ كان يردد المثل العربي، منهومان لايشبعان. طالب علم وطالب مال!

بطل التعقيم

الأوروبيون الذين نزلوا البر الأمريكي بالمدافع والنار واحتلوه وطردوا سكانه الهنود الحمر من لايذكرون شيئاً عن الجحيم الآخر الذي أوقعوا فيه هؤلاء الجنود، بجحيم المكروب! ولايذكرون الوسائل القذرة التي دفعوا بها هذا الشعب المنكود إلى الفناء.

ملابس الهنود وخيامهم المخروطية وأجسادهم،لوثوها عامدين. أجسادهم التي فتك بها الجدري والزهري والسل هي التي شهدت تهاوي الألوف بعد الألوف منهم في شقاء المرض... وأفضت بهم إلى الموت يحصدهم عن الأرض حصداً... لتدخل المدينة الأوروبية أرضهم منتصرة على «الهمجية» التي وصموهم بها!

الجدري، لعله كان أكثر الأوبئة انتشاراً إثر اكتشاف أمريكا. كان الأوروبيون يعرفون أنه وباء الموت ومع ذلك أو لذلك حملوه عامدين إلى البر الجديد. زرعوه هناك. وأخذت زهراته الحمر تشوي الأجساد الهندية بالحمى وتوشيها بالحبيبات فالجلد مئات من البقاع الحمراء تأكله حتى الموت ـ كل رقى السحرة لم تكن لتفعل شيئاً في انتشار الوباء الذي كان يأخذ السحرة أنفسهم فيمن يأخذ!

الذي خلص الإنسانية من هذا الوباء. وكشف سره فهو الآن ذكرى مريرة لايكاد يبين إلا جزراً معزولة مهزومة هو طبيب فرنسي اسمه لويس باستور.

هذا الرجل لم يكن فيه منذ ولد سنة ١٨٢٢ في بلدة دال شرقي فرنسا أي سمة من سمات الباحث المكتشف الذي سيكونه في المستقبل فهو سليل أسرة عملت أجيالاً في دبغ الجلود وجده الأعلى فلاح . وفي فتوته لم يظهر باستور أي اهتمام بأي شيء فيما عدا الرسم. فله عدد من اللوحات بالألوان.وبالأقلام

الناشفة لوالديه وأصدقائه . هذا الرجل هو صاحب «البسترة»!!

تشتري زجاجة الحليب فتجد عليها أنها مبسترة وتفتح المعاجم العربية كلها فلا تجد أثراً لهذه الكلمة ولا لمعناها فمن أين جاءت؟ أهي اسم عملية علمية؟ أم اسم مادة أضيفت إلى ما في الزجاجة أم لاهذا ولاذاك فهي نوع خاص من أنواع الحليب؟

لايمكن أن يخطر في جبينك أنها اسم لأسرة عملت أجيالاً وأجيالاً في دبغ الجلود في شرقي فرنسا وأن الجد الأعلى لهذه الأسرة فلاح استطاع التحرر من القنانة قنانة الأرض ليصبح حراً في القرن الثامن عشر وأن سليله الأدنى هو الذي جعل اسم أسرته علماً في التاريخ والعلم والكشف! اسم هذا الرجل لويس باستور.

أبداً ما فكر أحد بأن هذا الفتى الرسام سوف يكون له ذلك الأثر في المستقبل الاقتصادي لبلاده وللعالم ولا تلك المكانة في الطب ولا ذلك المجد العلمي العالمي... أتم باستور دراسته كأي فتى من مثل أوضاعه. الابتدائية والثانوية في بلدة آربو حيث انتقلت أسرته، ثم في بيزانسون ونال بكالوريا الآداب سنة ١٨٤٠ ثم بكالوريا العلوم سنة ١٨٤٢ في الكلية الملكية ثم قُبل في السنوات التالية في مدرسة المعلمين العليا، أشهر المدارس لتخريج المعلمين في فرنسا... ثم نال الإجازة في العلوم سنة ١٨٤٥ فكان ذلك أول انحراف واضح فيه إلى العلم وإلى علوم الفيزياء بالذات. بعد سنتين نال باستور درجة الدكتوراه في العلوم ولم يكن في كل ذلك شيء يميزه عن أمثاله بعد...

كانت حياته حتى الآن حياة أي شاب فرنسي من الطبقة المتوسطة في عصره يحاول التقدم، لكن بحثاً صغيراً قدمه سنة ١٨٤٨ إلى أكاديمية العلوم في باريس أثار حوله اللغط.

كان لم يجاوز بعد السادسة والعشرين وفي البحث الذي قدمه كشف هام حول بعض المواد الكيماوية التي يمكن أن تصبح مكوناتها اليمينية، يسارية وبالعكس وكل مكون فيها هو مرآة المكون الآخر.

كان ذلك يتعلق ببلورة حامض التارتاريك... وعلاقته بحمض آخر وأقام من بعد ذلك نظرية كيماوية جديدة للحمضين حول التخمر.

ليست تهمنا أسماء الحموض ولاعملياتها هنا ولكن يهمنا أن باستور دخل بذلك دنيا الاكتشاف والمكتشفين وهذا يعني أنه سيغرق أكثر فأكثر في بحر الأسرار العلمية التي لاتنتهي... وسوف يطلع بين فترة وأخرى بالكشف المدهش... وهذا هو الذي كان!

في سنة ١٨٤٨ عين باستور مدرساً للعلوم في ثانوية مدينة ديجون ولكنه سرعان ما استدعى ليكون أستاذاً للكيمياء في جامعة استراسبورغ ثم طال الأمر به ١٥ سنة ليصبح عميداً لكلية العلوم الجديدة في مدينة ليل سنة ١٨٦٣.وفيها دخل باب الاكتشاف على مصراعيه. كان يدرس صفوفاً من الشبان العمال في تلك المدينة الصناعية أقام بهم العلاقة ما بين الجامعة والصناعة. ولنقل بين النظرية والتطبيق. كانت الحالات التي تعرض له تدفعه لاكتشاف الحلول العملية لها. سأله أحد الصناعيين العاملين في مجال الخمور والكحول سؤالاً واستطاع اعتماداً على نظريته السابقة في التخمر أن يصل إلى أن ثم عاملاً عضوياً (هو البكتريا) يعمل على ذلك حتى في المواد غير العضوية. ودون أوكسجين الهواء... وقد عرف هذا الكشف باسم باستور نفسه مفعول باستور.

وبعد أن عين سنة ١٨٥٧ مديراً للدراسات العلمية في مدرسة المعلمين العليا أعلن أن هذا التخمر ناجم عن نشاط جسيمات وأشياء حيوية في منتهى الصغر إن غابت لم يحدث التخمر حتى من الحليب والجعة والنبيذ.

وحين اختبر باستور عضواً في أكاديمية العلوم سنة ١٨٦٢ كان هذا الاختيار نذيراً له بتحوله في الاكتشاف وجهة أخرى مختلفة جداً... وأصيلة جداً في الوقت نفسه!

أنشيء له في معهد البوزار (الفنون الجميلة) كرسي للدراسات الجيولوجية والفيزيائية والكيمياء والتطبيقية، وعلاقاتها بالفنون الرفيعة. فاندفع باستور في عمله الجديد يكتشف ويكتشف! منحه امبراطور فرنسا يومذاك نابليون الثالث

مخبراً للكيمياء الفيزيولوجية أنشىء من أجله في المعهد نفسه فانصرف يتابع أبحاثه حول التخمر، وعمل البكتريا العضوي فيه. كان هذا العمل في ذلك الوقت يقسم العلماء قسمين متعارضين. وأظهر باستور أن تعرض الكحول أو الحليب أو أي مادة أخرى للهواء يجعلها عرضة للتخمر والفساد بفعل عضويات غير مرئية موجودة على الدوام في الهواء وتتوالد عضوياً فيه. تجاربه في تنقية الهواء منها أثبتت له ذلك. كل السوائل والمواد الغذائية حتى في أعلى الجبال تتفسخ وتفسد بفعل هذه الأجسام الصغيرة وباستور بعد أن صاغ نظريته عاد فطبقها على الخل والنبيذ وكانا من أعمدة الاقتصاد الفرنسي! وبواسطة طريقته في التعقيم بقتل الخلايا الجرثومية الضارة عن طريق الحرارة نجح في جعل التجار يرسلون منتجاتهم إلى الأمكنة البعيدة دون أن تتعرض للفساد... وأنقذ باستور بذلك جماهير القطاعين الصناعي والتجاري.

في سنة ١٨٦٥ كلفته الحكومة الفرنسية مهمة البحث في أمراض دودة الحرير التي كادت في تلك الفترة تقضي عليها وبالتالي على جانب هام من الاقتصاد الفرنسي... إنها تدمر ملايين المزارعين العاملين عليها في جنوب فرنسا. وذهب إلى الجنوب، مركز هذه الزراعة وأعلن بعد ثلاث سنوات أنه عزل عصيات مرضين من هذه الأمراض ووجد الطرائق لتحصين الدودة منها ومن انتشار العدوى في المخزون. وسيطر على المرض وسيطر عليه الناس. على أن باستور في سنة ١٨٦٨ أصيب بالشلل الجزئي وتقاعد عن العمل الجامعي... فهل كانت الكارثة؟ هل توقف بذلك عقله العملي عن الحركة؟ أبداً كان لايزال هناك الكثير مما سوف يكتشف ولعلها أهم كشوفه!

كرس باستور جهده سنة ١٨٧٠ لمشكلة الجعة، وبعد بحث طويل في فرنسا ولدى العاملين على هذه المادة بإنكلترا واستخدم طريقته في الخل والنبيذ، استطاع الوصول إلى طريقة في صنعها تمنع عنها الفساد مع الأيام. المصدرون الانكليز صاروا يصدرونها إلى القارة الافريقية وحتى إلى الهند دون أن يخشوا عليها التحلل الذي كان يدمرها ويدمرهم من قبل...

وانهالت عليه أكاليل الغار! اختير عضواً في أكاديمية الطب سنة ١٨٧٣ ثم منحه البرلمان الفرنسي ما يضمن له الأمان المادي الحسن ولكن ذلك لم يوقف ديناميكية ذلك الفكر الجوال في جمجمته!

في سنة ١٨٨١ حين نجح في تطوير تقنية لمكافحة الأمراض الخبيثة، خلص قطيعاً من الغنم من داء الجمرة ذلك المرض الذي يصيب الجلد والأنسجة تحت الجلد بباكتريا المكورات العنقودية، عالجها بالتطعيم ضده. ثم استطاع التحكم من مرض كوليرا الدجاج ومنع وقوعها فريسة له حين لاحظ أن خلاص أي حيوان بعد الإصابة به يعطيه المناعة عن الإصابة به مرة أخرى... وتدبر من ذلك طعماً ضده.

وأخيراً اختير باستور سنة ١٨٨٢ عضواً في الأكاديمية الفرنسية، أعلى مقام علمي بين الأربعين الخالدين في هذا المجمع. وإذ ذاك قام بأعظم أعماله العلمية: ابتكار مصل ضد داء الكلب.

بعد تجارب وتجارب على الكلاب المسعورة المصابة به وعلى لعابها وجد أن الفيروس الذي يسبب السعار موجود أيضاً في المراكز العصبية فعمل على إيجاد فيروس ضعيف تلقح به الحيوانات فتحميها من الإصابة. بهذا اللقاح أنقذ لأول مرة طفلاً في التاسعة من العمر عضه كلب كَلِب.

كان ذلك نجاحاً رائعاً ولم يمنح السمعة الكبرى لباستور فقط ولكنه فتح الباب على مصراعيه للطب الوقائي ضد الأمراض الخطيرة في العالم كله.

وبالرغم من صحة باستور المتدهورة وهو يقارب السبعين ومن شلله فقد افتتح مؤسسة للطب الوقائي ومعالجة داء الكلب برئاسته. وظل يرعاها حتى الوفاة سنة ١٨٩٥ وهدأ أخيراً ذلك العقل الكشفي الذي كان ثورة في علوم القرن الماضي ومن طرائقه...

ما كان من شيء يستطيع أن يوقف ذلك العقل ويقهره إلا الموت. وانتصر الموت.

و نالت جائزة نوبل مرتين ... ونالتها ابنتها أيضاً

في زيارة عائلية، قالت سيدة البيت وفي جفونها شيء من العتب:

ـ ألست ترى أنك في كل ما تكتب، إنما تكتب للرجل وعن الرجل وتطوف كالكاهن العجوز في دنيا الرجل؟

هل مرت امرأة، امرأة واحدة، في عالم البارزين أو المكتشفين أو المنسيين الذي تصف والذي تمتدح وتحمل له المباخر؟ ألست ترى ذلك؟

لم أجد في الجواب سوى أن أعترف أن عالم الرجل كان دوماً يضغط على عالم المرأة ويزيحها.كان يحجبها ويقطع مبادراتها. وفي التاريخ نساء كثيرات هن أهل لأن يكون لهن مكان يفوق مكان الرجال. وأردت الانحراف بالحديث فأضفت:

ـ دعني أحدثك عن ثلاث أسر مشتبكة بعضها مع بعض كانت النجوم فيها امرأتان: أم وابنتها. هل سمعت باسم ماري سكولودو فسكا؟ مؤكد أنك ما سمعت به. لقد كانت الوحيدة التي نالت جائزة نوبل مرتين. ونالتها أيضاً ابنتها من بعدها! ومع ذلك فإنك دون شك تعرفين هذه السيدة جيداً بغير هذا الاسم. إنها مدام كوري!

وصاح الحضور: مدام كوري! سمعنا طبعاً بها. ولكن ما قصة الأسر التي تروى؟ وما علاقة هذه العالمة بها؟

القصة تستحق أن تروى. ففي حي متواضع من مدينة فارسوفيا في بولونيا ولدت ماري هذه أواخر ١٨٦٧ في أسرة من غمار الناس. ذات تطلعات بورجوازية. ومستوى من العيش لا يوصف بالبحبوحة ولا بالترف. الأب كان يعمل في تدريس الفيزياء. ولكن كان يعنى بابنته ويلقنها مبادىء العلم. بخاصة في فترة دراستها الثانوية. وتأثرت ماري بخطى أبيها الذي تلقت منه أول تدريباتها العلمية كثيراً ما تجادله وتسأله وتحرجه. أكان التطلع العلمي يشغلها في

هذا العمر المبكر عن أشياء أخرى في الحياة؟ أبداً فقد كان لها تطلعات عديدة لعل أهمها تلك العاطفة الوطنية العنيفة التي جعلتها تلتحق بالحركات الثورية السرية. فبلادها في تلك الفترة كانت ملحقة بروسيا. والبولونيون كانوا يكرهون الروس. ويعتبرونهم محتلين. اغتصبوا أكثر من مرة استقلال بولونيا. ويعزز هذا الكره أن الروس ارثوذكس وبولونيا كاثوليكية. وأن الحكم الروسي كان استبدادياً. وسيطرة الجيش وتدخلات الشرطة السرية كانت مستمرة. وكانت بولونيا أكثر الأقاليم القيصرية شقاء بهذا الحكم. وكان لها معه كل فترة ثورة وحكاية.

واستغرقت ماري بنشاطها الثوري لدرجة لم تسلم معها من الوقيعة. عرفت الشرطة بتحركاتها بين طلاب الجامعة فاضطرت للهرب. سافرت أولاً إلى كراكوف. وكانت هذه المدينة يومذاك تحت السيطرة النمساوية. ولكن السلطات في هذه المدينة لم ترتح لوجودها الخطر. وأبلغتها ذلك. وهذا يعني الرحيل. ولكن إلى أين؟ لم يكن في أوروبا يومذاك بلد يعدل باريس في جو الحرية. سمعتها في أوروبا كانت في تلك الفترة تطن كأجراس الكنائس. وكانت تعتبر ملجأ الأحرار والثوريين. وسافرت ماري إلى باريس. وهناك أتمت دراستها الجامعية في السوربون. ولفتت أنظار أساتذتها لا بجمالها فلم تكن على شيء كثير منه ولكن بذكائها واندفاعها العلمي. لم تكن تدري أن الأستاذ الذي اختارها مساعدة له سوف يطلبها للزواج. وقبلت. هذا الأستاذ هو بيير كوري. وصارت ماري سكولودوفسكا: مدام كوري؟

نالت إجازتها الجامعية واجتذبتها المخابر والآنابيب فغرقت فيها. وإن لم تنس وطنها ولا فارسوفيا. ولكنها الآن صارت فرنسية. وبيير كوري الذي تزوجها لم يكن نكرة من نكرات العلم. كانت له سمعته البارزة في مجال الفيزياء. أخوه من قبله بول كوري كان عالم فيزياء بارز. وهو الذي قاد خطوات أخيه الأولى في ميدان العلم. وقد درس هذا الأخ الكهربة الثنائية القطب تحت ضغط بعض المواد المتبلورة كالكورتز ونال على جهوده العلمية عدة جوائز.فالأسرة من

الأسر البارزة في العلوم. وقد فاق بيير أخاه بول وبعد أن درس في السوربون في باريس أصبح أستاذاً للفيزياء فيها. وانصرف في أبحاثه العلمية الأولى إلى الكهربائية والقابلية المغناطيسية للأجسام تحت درجات حرارة مختلفة. ووصل فيها إلى قانون عرف لدى الفيزيائيين بنقطة كوري. ثم حين أعلن العالم الفيزيائي هنري بكيريل ١٨٩٩ خصائص النشاط الاشعاعي في اليورانيوم استثار ذلك الزوجين كوري. فجعلا همهما في دراسته لأنهما كانا قد أعلنا قبل ذلك ١٨٩٨ أنهما اكتشفا العنصر المشع الجديد بعد أن أخضعا بعض المواد لعمليات من التكسير. ثم سمى الزوجان هذا العنصر المكتشف باسم بولونيوم تكريماً للسيدة كوري البولونية ولكنه حمل دوماً اسم الراديوم.

كان الزوجان يعملان معاً ولكن كانت لكل منهما شخصيته المستقلة في الأبحاث العلمية وعرفا بذلك فلم يكن اسم الزوجة بأقل لمعاناً من اسم زوجها مسيو كوري. وصار لها مكانها الخاص في الأوساط العلمية. يروون عنها أنها كانت تعتبر المختبر هيكلاً ومعبداً تحتبس نفسها فيه كبعض الكهان فترات طويلة تسمي ذلك صلاة العلم. لكن لم يصرفها ذلك كله عن تذكر وطنها بولونيا وعن دعم الحركات الثورية فيها. كانت بولونيا حبها الأول الذي لا تخفيه.

تابع الزوجان سنوات دراسة خصائص الراديوم. وتحولات مركباته وألقيا الأضواء على خصائصه الاشعاعية مما قاد بحثهما إلى كثير من التطبيقات العملية وإلى تأسيس عدد من الدراسات التالية في الأبحاث الفيزيائية الذرية من جهة والكيمائية من جهة أخرى. والعلماء الذين كانوا يتابعون خطوات مدام كوري حول المواد المشعة والراديوم هم آباء القنبلة الذرية التي فجرت أول مرة في هيروشيما وناغازاكي. وأنهت الحرب العالمية الثانية. أكانت تحلم بها؟ من المشكوك فيه أنها وصلت هذا الحد من التنبؤ ولكنها بلى! كانت تحلم بإيجاد مصادر جديدة للطاقة.

وذات يوم من عام ١٩٠٣ بلغ الزوجين أن الجمعية البريطانية للعلوم قد

منحتهما وسام دافي أعظم الأوسمة العلمية الانكليزية. ودافي هو الكيميائي الانكليزي الأول. ثم ما عتم المجمع السويدي أن منح الزوجين في السنة ذاتها جائزة نوبل للفيزياء مع هنري بكيريل لاكتشافهما أسرار النشاط الاشعاعي.

لم تكن مدام كوري قد نالت الدكتوراة بعد في العلوم وهي في السادسة والثلاثين من العمر فتقدمت في السنة نفسها برسالتها للدكتوراه ونالتها بامتياز وعينت رئيسة المختبر في القسم الذي أنشيء خصيصاً لزوجها في السوربون. هل بلغت مدام كوري تلك السنة مع أكاليل الغار التي وصلتها قمة ما تصبو إليه؟ لم يكن كل ذلك المجد يكفيها وما يزال لديها الكثير لتعطيه.

واختير زوجها مسيو كوري عضواً في أكاديمية العلوم. وما لبث أن وقع وداسته الأرجل في مظاهرة دموية صاخبة في باريس سنة ١٩٠٦. كل الذين فجعوا به وجدوا في مدام كوري العوض عنه. أعطوها مكان زوجها أستاذة للفيزياء بالسوربون. زواجها لم يكمل ١١ سنة وأنجب ابنة. وتابعت مدام كوري الطريق وحدها. أكان ممكناً أن تقف بعد كل الذي بلغته من الشهرة هذه الأرملة وقد كانت في الآصل شعلة بذاتها وقائدة على نحو من الأنحاء لبعض أبحاث زوجها؟

بعد خمس سنوات وفي ١٩١١ فوجئت مدام كوري بما لم تكن تنتظر: منحت جائزة نوبل في الكيمياء للمرة الثانية ووحدها هذه المرة. كانت هذه أول وآخر مرة تمنح فيها هذه الجائزة مرتين لشخص واحد وتمنح خلال تسع سنوات وتمنح أيضاً وأيضاً لامرأة! كانت قد طبعت دراساتها حول المواد المشعة سنة ١٩٠٤ فطبعت بعد ذلك المفصل في الاشعاع سنة ١٩١٠ وأعانت كثيراً على إنشاء مخبر للنشاط الاشعاعي في فرسوفيا، بلدها الأول أكان ممكناً أن تنساه؟

وجاءت الحرب العالمية الأولى لمدام كوري بالآلام لوطنها الذي كان مسرح عمليات حربية عنيفة انتهت سنة ١٩١٨ وقام مؤتمر باريس بفصل بولونيا عن روسيا وإعلان استقلالها. كانت فرحتها بهذا الاعلان أكثر من فرحتها بنوال جائزة نوبل. لقد تحقق حلم شبابها. ولكنها لن تترك عملها ومجدها الفرنسي

لترجع إلى بولونيا التي مضى على تركها لها ثلاث وثلاثون سنة إنها الآن فرنسية، على الأقل احتراماً لزوجها الذي فقدت ولابنتها!

كان بروز امرأة في ميدان العلم، في مطالع هذا القرن، تفوز بأعظم جوائز العلم حدثاً أدخل الاعتزاز والفخر على نساء أوربا وأمريكا لقد عرفت هذه البلاد بعض النساء المناضلات كجان دارك أو المشهورات كمدام بومبادور أو الكاتبات أمثال جورج ساند أما عالمات فباب جديد دخلته فاتحة هذه المرأة وتحمست المناصرات لها العاملات في العلم في الولايات المتحدة سنة ١٩٢١ يردن أن يقدمن لها هدية. قدمتها برس وارن وهاردنغ باسمهن هي: غرام واحد من الراديوم.

بعد ثماني سنوات أرسلت مدام كوري نداء لمعونة المختبر الذي أنشأته للإشعاع في بولونيا فتلقت بين التبرعات الكثيرة /٥٠/ ألف دولار من أصدقاء العلم في أمريكا. على أن صحتها الجسدية كانت تتدهور بقدر ارتفاع مجدها وسمعتها. افترسها الإرهاق المتصل وأكلت المخابر من عينيها واليدين. فانكمشت عن العمل ولم تكن قد جاوزت السابعة والستين من العمر وكانت تستشفي في جنوب فرنسا في منطقة سافوا الجبلية الرائعة حين فوجىء العالم بوفاتها عام ١٩٣٤. مشى في جنازتها موكب هائل من العلماء عدا الرسميين.

بقي أن نسأل وأين الأسرة الثالثة في هذا الموضوع؟ أسرتها أطلعتها وأسرة زوجها مسيو كوري أطلعته وماذا بعد؟ ابنتها ايرين جولييت كوري ورثت عبقريتها وكانت بدورها متزوجة من عالم من كبار الرجال هو فريدريك جوليو. وبعد وفاة مدام كوري بسنة واحدة توجت أعمال الابنة ايرين مع زوجها بجائزة نوبل في الكيمياء حملتها أيضاً وأيضاً.

هل ترى العبقرية تورث أم هو المنهج والدأب؟ وما هي هذه المصادفة التي جمعت ثلاث أسر في واحدة وحملتها ثلاث جوائز نوبل؟



كلمة أخيرة

هل يتميز المكتشفون بحاسة خاصة، سادسة مثلاً ـ تجعل أعينهم أحد بصراً؟ أم بجرأة تهزأ بالمغامرة؟ أم بحدس من الإلهام ليس يدرون من أن يتنزل عليهم. أم هو الحظ يضرب ضربة هنا وضربة هناك على العمياء ويحجب ضرباته عن كثير؟

يجب أن نعترف أن الحضارة الإنسانية كلها ليست أكثر من تراكم اكتشافات صغيرة وتفاعلها منذ أوقد الإنسان بنفسه أول نار على الأرض إلى أن حطم الذرة وخرق الأفلاك. ولعل كشف النار كان أكثر شأناً من كشف الذرة.

ولعل الذي صنع أول عجلة أحدث ثورة في الإنسانية لم تحدثها صواريخ الأقمار...

إن الإنسانية كلها هي هذه القبضة الصغيرة من المكتشفين والمبدعين... وكفى!

الفهرس

المكتشفون في التاريخ/شاكر مصطفى .ـــدمشق: دار طلاس، ١٩٩٦ .ـــ
١٥٧ص؛ ٢٠ سم .ـــ (سلسلة أوراق من التاريخ؛ ٤)

١ ـــ ٩١٠م ص ط م ٢ ـــ ٦٠٨م ص ط م ٣ـــ العنـــوان ٤ ـــ
مصطفى ٥ ـــ السلسلة

مكتبة الأسد

رقم الإيداع ـــ ١٩٩٥/١٠/١٥٨١ رقم الاصدار ٦٨٢

رقم: ٢٦٤٢٠
تاريخ: ١٩٩٥/١٠/٣١

